قبسات من نور كلام أهل العصمة عليهم السلام

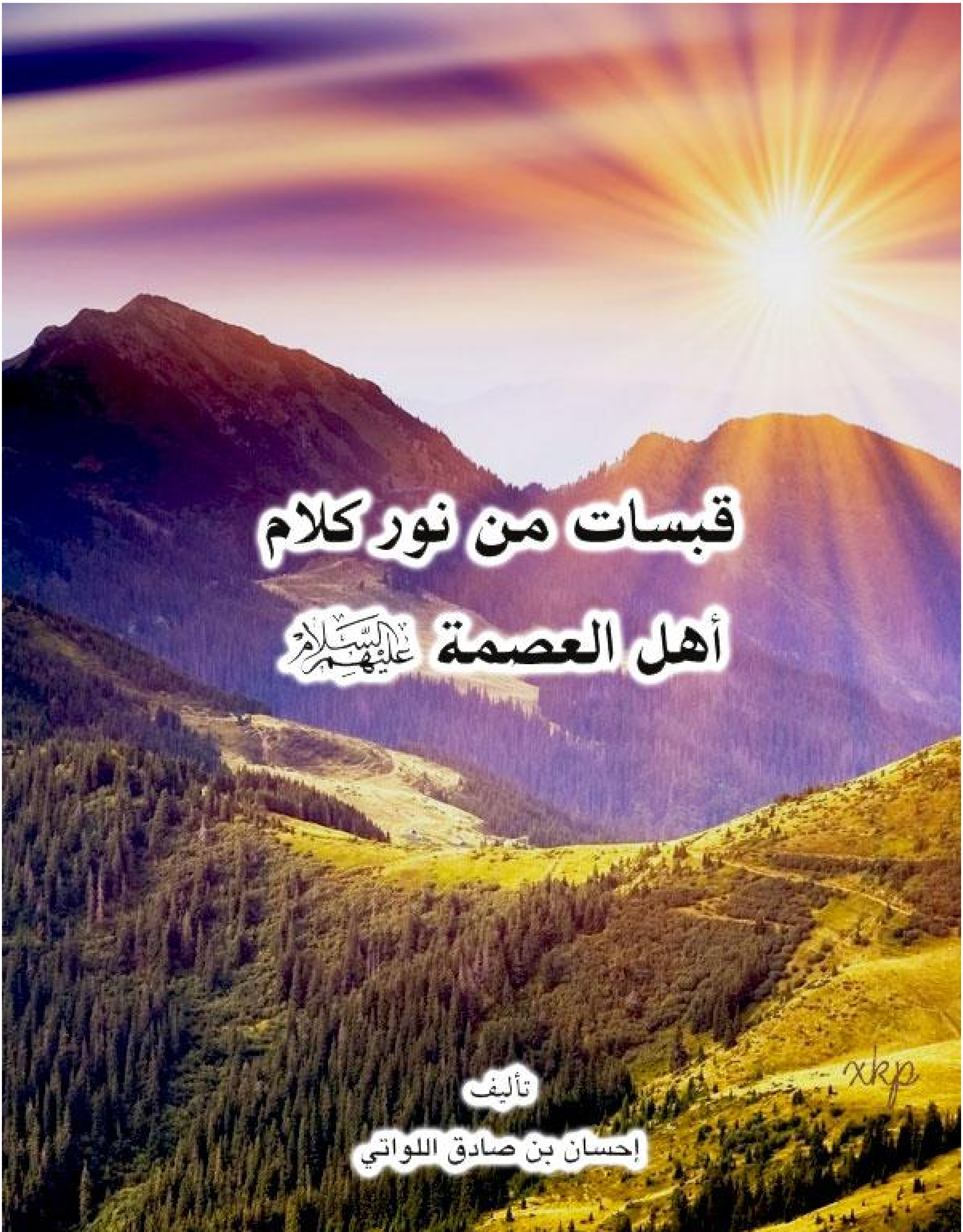
قبسات من نور كلام
أهل العصمة عليهم السلام
تأليف
إحسان بن صادق اللواتي
xkp

قبسات من نور كلام

أهل العصمة عليهم السلام

تأليف

إحسان بن صادق اللواتي

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله الناشر في الخلق فضله، والباسط فيهم بالجود يده، نحمده في جميع أموره، ونستعينه على رعاية حقوقه، ونشهد أن لا إله غيره، وأنّ محمدًا عبده ورسوله، أرسله بأمره صادعًا، وبذكره ناطقًا، فأدى أمينًا، ومضى رشيدًا، فصلوات الله عليه أبدًا، وسلامه دائمًا سرمدًا، عليه وعلى آله الطاهرين وصحبه المنتجبين.

وبعد، فلا يرتاب مرتاب في أنّ النبي ﷺ وأهل بيته المعصومين عليهم السلام قد بلغ كلامهم في فصاحته وبلاغته وعميق دلالاته ووسيع أبعاده وظلاله درجة لم يبلغها كلام سابقيهم ولا لاحقيهم، فهو كلام دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوقين؛ لذا استحق أن يوصف في الزيارة الجامعة الكبيرة بأنه نور: «كلامكم نور».

وفي حضرة هذا النور، لا تمتلك نفوسنا إلا أن تنجذب إلى مصدره، وتنشدّ إلى أصله، فتسعى إلى أن تستفيد منه بقدر

وسعها، وأن تنقل ما أمكنها إلى الآخرين كيما يستفيدوا منه أيضًا. وهذا ما يسعى هذا الكتاب إلى فعله، فهو عبارة عن مجموعة من «قبسات»، قبسها كاتبها من «نور كلام أهل العصمة عليهم السلام»، مقتصرًا على قبسة واحدة فقط من كل معصوم، ابتداءً من سيد الخلق والمرسلين محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وانتهاءً بإمام عصرنا وزماننا المهدي المنتظر عليه السلام، مع الاستفادة بين المبدء والمنتهى من قبسات كل معصوم معصوم على حدةٍ، بالاستعانة بقراءة نصية تحليلية، تعتمد على التركيز على المنهج الوصفي، بغيةَ استخراج ما في كل نص من أبعاد دلالية وصور فنية، وخصائص تعبيرية، وسمات أسلوبية.

إنه جهد مقلّ، سعى إلى الاستفادة والإفادة من نور كلام يحتاج إليه كل الناس؛ كيما تستنير به نفوسهم أولًا، وينيروا به غيرهم ثانيًا، فيكون كل ذلك، أخيرًا، بسبيل أن تمتلئ الحياة كلها نورًا، فلا يبقى فيها مجال لظلام، أيًا كان مصدره، وأيةً كانت درجته.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

د. إحسان بن صادق بن محمد اللواتي
١٢ من شهر رمضان المبارك ١٤٣٨هـ
مسقط - سلطنة عُمان
ehsansadiq@hotmail.com

قبسة نبوية: أعقل الناس وأجهلهم

عن الرسول الأكرم محمد ﷺ: «أعقل الناس محسن خائف، وأجهلهم مسيء آمن»[1].

«العقل» في اللغة هو بمعنى «الحِجْر والنُّهى ضد الحُمق، والجمع عقول»[2]، وقد تكرر ذكره في القرآن الكريم مرات كثيرة، كما تناولته أيضًا الأحاديث والروايات الشريفة المروية عن النبي ﷺ وآله الطاهرين عليهم السلام في موارد غير قليلة، وجعلت له مقامًا متميزًا في رفعته وعلوّه، حتى روي عن النبي ﷺ أنه قال: «ما قسم الله للعباد شيئًا أفضل من العقل، فنوم العاقل أفضل من سهر الجاهل، وإقامة العاقل أفضل من

(١) بحار الأنوار، العلامة محمد باقر المجلسي، ط٢، مؤسسة الوفاء، بيروت ١٩٨٣، ١: ١٣١.

(٢) لسان العرب، ابن منظور الأفريقي المصري، دار صادر، بيروت، د.ت، مادة «عقل».

شخوص الجاهل، ولا بعث الله نبيًا ولا رسولًا حتى يستكمل العقل، ويكون عقله أفضل من جميع أمته»[١]، وروي عنه صلى الله عليه وآله وسلم أيضًا: «قوام المرء عقله، ولا دين لمن لا عقل له»[٢]. ومما روي كذلك أنه صلى الله عليه وآله وسلم أجاب الراهب شمعون بن لاوي حين سأله عن العقل بقوله: «إنّ العقل عقال من الجهل، والنفس مثل أخبث الدواب فإن لم تُعقل حارت، فالعقل عقال من الجهل، وإنّ الله خلق العقل فقال له: أقبل، فأقبل، وقال له: أدبر، فأدبر، فقال الله تبارك وتعالى: وعزتي وجلالي، ما خلقت خلقًا أعظم منك ولا أطوع منك، بك أبدأ وبك أعيد، لك الثواب وعليك العقاب...»[٣].

وعلى الرغم من اشتهار هذه الكلمة «العقل» وكثرة استعمالها، فإنها ليست ذات مفهوم محدد متفق عليه، بل تعاورتها معانٍ اصطلاحية متعددة تناولها العلامة المجلسي ببحث مفصّل، وانتهى منه إلى قوله: «الأخبار الواردة في هذه الأبواب أكثرها ظاهرة في المعنيين الأولين، اللذين مآلهما

(١) أصول الكافي، الشيخ الكليني، منشورات الفجر، بيروت، د.ت، ١: ٦.
(٢) بحار الأنوار ١: ٩٤.
(٣) تحف العقول عن آل الرسول، الشيخ ابن شعبة الحراني، ط٥، مؤسسة الأعلمي، بيروت ١٩٧٤، ص ١٩.

إلى واحد، وفي الثاني منهما أكثر وأظهر، وبعض الأخبار يحتمل بعض المعاني الأخرى»[١]. والمعنيان الأولان المقصودان هما:

المعنى الأول: العقل هو قوة إدراك الخير والشر والتمييز بينهما، والتمكن من معرفة أسباب الأمور وذوات الأسباب، وما يؤدي إليها وما يمنع منها.

والمعنى الثاني: مَلَكة وحالة في النفس تدعو إلى اختيار الخير والنفع، واجتناب الشرور والمضارّ، وبها تقوى النفس على زجر الدواعي الشهوانية والغضبية والوساوس الشيطانية.

وبناءً على هذين المعنيين - ومآلهما إلى واحد كما قال المجلسي - فإنّ العقل هو تلك القوة الداخلية التي تمكّن الإنسان من معرفة الخير والشر، وتدعوه إلى اختيار الأول وترك الأخير. ومن هنا يمكننا فهم جواب النبي ﷺ حين سُئل: ما العقل؟ فأجاب: «العمل بطاعة الله، وإنّ العمال بطاعة الله هم العقلاء»[٢]، ونستطيع أن نفهم كذلك سر ربطه الرشدَ باتّباع العقل، والندامةَ بعصيانه في قوله ﷺ:

(١) بحار الأنوار ١: ١٠١.
(٢) المصدر نفسه ١: ١٣١.

«استرشدوا العقل ترشدوا، ولا تعصوه فتندموا»[١]. وإلى هذا يرجع أيضًا تعريف الإمام الصادق عليه السلام للعقل بأنه: «ما عُبد به الرحمن، واكتسب به الجنان»[٢].

وبما أنّ العقل هو المسؤول عن تمييز الإنسان لطريقه والداعي له إلى السير فيه، فإنّ من البدهي، إذن، أن يكون هو أساس جزائه يوم القيامة، فعن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «إذا بلغكم عن رجل حسن حاله فانظروا في حسن عقله، فإنما يجازى بعقله»[٣]، وعن الإمام محمد الباقر عليه السلام: «إنما يداقّ الله العباد في الحساب يوم القيامة على قدر ما آتاهم من العقول في الدنيا»[٤].

ومن الواضح أنّ العقل بهذا المعنى لا يتطابق مفهومه مع مفهوم الذكاء أو الدهاء، فهذا قد لا يستفاد منه في السير في طريق الحق، فيكون على صاحبه وبالًا وضررًا، ويقوده إلى الخسران المبين، وهذه الحالة وصفتها الروايات الشريفة بأنها «تلك النكراء، وتلك الشيطنة، وهي شبيهة بالعقل، وليست بعقل»[٥].

---

(١) بحار الأنوار ١: ٩٦.
(٢) المصدر نفسه ١: ١١٦.
(٣) المصدر نفسه ١: ٩٣.
(٤) أصول الكافي ١: ٥.
(٥) بحار الأنوار ١: ١٣١.

وينبغي أن نفرّق أيضًا بين مفهوم العقل في الروايات الشريفة ومفهومه في الدراسات الحديثة التي تتحدث عن العقل العربي، والعقل الإسلامي. . . إلخ. فهذه الدراسات حين تذكر العقل العربي مثلًا فإنما تعني به «جملة المبادئ والقواعد التي تقدّمها الثقافة العربية للمنتمين إليها كأساس لاكتساب المعرفة، أو فلنقل: تفرضها عليهم كنظام معرفيّ»(١). وأساس هذا الفارق كامن في النتيجة؛ ذلك أنّ المفهوم الروائي للعقل يشترط الوصول إلى طريق الله تعالى والسير فيه، في حين أنّ الدراسات الحديثة تكتفي بالجانب المعرفي وحده.

وإذا كنا قد عرفنا مفهوم «العقل» في النصوص الشرعية، فإننا بذلك نكون قد عرفنا مفهوم «الجهل» أيضًا، فبأضدادها تُعرف الأشياء؛ لذا لـمّا وصف الإمام علي عليه السلام العاقل بقوله: «هو الذي يضع الشيء مواضعه»، وطُلب منه بعد هذا أن يصف الجاهل، اكتفى بقوله: «قد فعلت»(٢).

نعم، لئن كان العقل معرفةً للحق وسيرًا في طريقه، فإنّ الجهل يعني التعامي عنه والتجافي عن سبيله، فعن رسول

---

(١) تكوين العقل العربي، د. محمد عابد الجابري، ط٥، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٩١، ص١٥.

(٢) بحار الأنوار ١: ١٦٠.

الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «إنّ العاقل من أطاع الله وإن كان ذميم المنظر حقير الخطر، وإنّ الجاهل من عصى الله وإن كان جميل المنظر عظيم الخطر، أفضل الناس أعقل الناس»(١).

الجاهل إنسان آتاه الله نعمة العقل، فكفر بها، وأعرض عنها، ورضي لنفسه أن يترك قيادها بيد شهوتها وهواها، فكانت بذلك في جيش الشيطان. عن الإمام علي عليه السلام أنه قال: «العقل صاحب جيش الرحمن، والهوى قائد جيش الشيطان، والنفس متجاذبة بينهما، فأيهما غلب كانت في حيّزه»(٢).

وقد وصفت بعض الأحاديث الشريفة هذا الجاهل التارك لما يقتضيه عقله بالمجنون، فقد مرّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بمجنون فقال: ما له؟ فقيل: إنه مجنون، فقال: «بل هو مصاب، إنما المجنون من آثر الدنيا على الآخرة»(٣).

بعد هذا كله، إذا جئنا إلى الحديث النبوي الشريف الذي

(١) بحار الأنوار ١: ١٦٠.
(٢) ميزان الحكمة، محمدي الري شهري، مكتب الإعلام الإسلامي، قم ١٤٠٤ه، ٦: ٤٠٥.
(٣) بحار الأنوار ١: ١٣١.

افتتحنا به الكلام، وجدناه يستعمل صيغة أفعل التفضيل في جانبي العقل والجهل معًا (أعقل وأجهل)، فأعقل الناس من كان يسلك سبيل الإحسان مع وجود الخوف في داخله، الخوف من ربه والخوف من عدم قبول أعماله، وأجهلهم من كان على خلاف ذلك، يقترف الإساءة، وفي الوقت ذاته تكون نفسه آمنة من مكر الله ومطمئنة لا مكان فيها للخوف والوجل.

وهنا لا بد لنا من وقفة تساؤل: لماذا عدّ رسول الله ﷺ المحسن الخائف أعقل الناس؟ فإذا عرفنا الجواب عن هذا، أغنانا عن أن نسأل: ولماذا كان المسيء الآمن أجهل الناس؟ لأنّ الحقائق تُعرف بأضدادها، وتتبيّن مما يقابلها.

يمكن أن تُعرض في مقام الإجابة الوجوه الآتية:

الوجه الأول:

المحسن الخائف هو أعقل الناس لأنه جعل إحسانه خالصًا لوجه ربه تعالى، بقرينة أنه يأتي بالعمل وهو خائف من عدم القبول عنده سبحانه. إنه أعقل الناس لأنه عرف أنّ العمل إن لم يكن خالصًا لله تعالى فهو للشيطان، فعن رسول الله ﷺ أنه قال: «يا أيها الناس، إنما هو الله والشيطان، والحق والباطل، والهدى والضلالة، والرشد والغيّ،

والعاجلة والآجلة والعاقبة، والحسنات والسيئات، فما كان من حسنات فللّه، وما كان من سيئات فللشيطان لعنه الله»(١).

وورد عن الإمام أبي عبد الله الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ في قول الله عز وجلّ: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾(٢) أنه قال: «ليس يعني أكثر عملًا، ولكن أصوبكم عملًا، وإنما الإصابة خشية الله والنية الصادقة والحسنة. ثم قال: الإبقاء على العمل حتى يخلص أشد من العمل، والعمل الخالص: الذي لا تريد أن يحمدك عليه أحد إلا الله عز وجل، والنية أفضل من العمل، ألا وإنّ النية هي العمل، ثم تلا قوله عز وجل: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾(٣) يعني على نيته»(٤).

إنّ هذا الإنسان لمستحق للخير والسعادة حقًا؛ لأنه أخلص لله، وكان حقًا على الله أن يكافئ عباده المخلصين، فعن أمير المؤمنين علي عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه كان يقول: «طوبى لمن أخلص لله العبادة والدعاء، ولم يشغل قلبه بما ترى عيناه، ولم

---

(١) أصول الكافي ٢: ١٣.
(٢) سورة الملك، الآية: ٢.
(٣) سورة الإسراء، الآية: ٨٤.
(٤) أصول الكافي ٢: ١٣.

ينسَ ذكر الله بما تسمع أذناه، ولم يحزن صدره بما أُعطي غيره»(١).

وكان الإخلاص أكثر شيء حضورًا في سلوك الإمام علي عليه السلام العملي وتصرفاته في كل حياته، حتى خلّد له- ولزوجه السيدة فاطمة عليها السلام ولخادمتهما فضة - القرآنُ الكريم ذلك في قوله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾﴾(٢)، في القصة المعروفة حين مرض الحسن والحسين عليهما السلام، فنذر علي وفاطمة عليهما السلام مع فضة جاريتهما، أن يصوموا ثلاثة أيام شكرًا لله إن برئ الولدان من مرضهما، فلما شُفيا بروا بنذرهم فصاموا جميعًا، فلما كان وقت إفطارهم جاءهم مسكين طارقًا بابهم فآثروه بإفطارهم، وباتوا جائعين. وفي اليوم الثاني سألهم يتيم فأعطوه ما جهزوه لإفطارهم، وفي اليوم الثالث أتاهم أسير فمنحوه أيضًا. كل ذلك لله، تقربًا إليه وابتغاءً لثوابه وقربه(٣).

---

(١) أصول الكافي ٢: ١٣.

(٢) سورة الإنسان، الآيتان: ٨، ٩.

(٣) ذكر سبب النزول هذا جمع كبير من المفسرين والمؤرخين والمؤلفين، منهم: محب الدين الطبري في «ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى» ص١٠٣، =

وفي سِيَر العلماء الربانيين نقف أمام مواقف لافتة وصور باهرة يتبدى فيها حرصهم الأكيد على التحلي بالإخلاص دومًا في أفعالهم وأقوالهم. ومما يُنقل في هذا المجال أنّ جمعًا من العلماء والمؤمنين أخذوا يحدّثون المرجع الديني الكبير السيد البروجردي (قدس سره) عن إنجازاتهم وخدماتهم للدين والناس، ولاحظ المرجع أنّ هناك عالمًا ظل ساكتًا طوال الوقت لا ينبس بكلمة، فلمّا فرغ المتحدثون مما أرادوا سأله السيد البروجردي أن يتحدث أيضًا عن إنجازاته، وإذا به يقول بأدب جمّ: «سيدي، أود أن تأذن لي بقراءة حديث عن جدك علي أمير المؤمنين عليه السلام فقط»، فأذن له السيد، فقال العالم: قال علي عليه السلام: «أخلص العمل، فإنّ الناقد بصير بصير»، وما كاد يكمل كلامه حتى أجهش السيد البروجردي بالبكاء، ثم قال له: «أحسنت بتذكيرك إيانا الإخلاص»[1].

= والسيوطي في «الدر المنثور في التفسير بالمأثور» ٦: ٤٨٥، وسبط ابن الجوزي في «تذكرة الخواص» ٢: ٣٤٢- ٣٤٩. ويمكن للتفاصيل مراجعة كتاب «علي في القرآن» من تأليف محمدي كاجي ص٥٠١ وما بعدها.

(١) نقل القصة الشيخ عبد العظيم المهتدي البحراني في كتابه «قصص وخواطر من أخلاقيات علماء الدين»، ص٢٦٦- ٢٦٧.

الوجه الثاني:

إنه أعقل الناس من جهة كونه لا يحمل في داخله حالة الإدلال على الله تعالى، و«الإدلال» مأخوذ في اللغة من «أدلّ عليه وتدلّل: انبسط، وقال ابن دريد: أدلّ عليه وثق بمحبته فأفرط عليه»(١). فالإنسان المدلّ على الله هو الذي يشعر في أعماقه بأنّ له حظوة خاصة ومرتبة مميزة عند ربه، حتى إنّ أعماله كلها لا بد أن تكون مقبولة عنده سبحانه وتعالى، وهذا الشعور هو في الواقع نابع من تسويلات النفس الأمارة بالسوء ووساوس الشيطان، فالعاقل لا ينبغي أن يكون على ثقة تامة بعمله، كيف؟ وهذا رسول الله ﷺ أعظم الخلق يقول: «اعلموا أنه لن ينجو أحد منكم بعمله»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل»(٢). وجاء في وصف أمير المؤمنين علي عليه السلام للمتقين قوله: «فهم لأنفسهم متهمون، ومن أعمالهم مشفقون»(٣).

---

(١) لسان العرب، ابن منظور الأفريقي المصري، دار صادر، بيروت، دون تاريخ، مادة «دلل».

(٢) ميزان الحكمة ٧: ٢٧.

(٣) نهج البلاغة، الإمام علي عليه السلام، ضبط د. صبحي الصالح، دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة، بيروت ١٩٨٢، الخطبة ١٩٣، ص٣٠٤.

وقد يشطح المرء في إدلاله كثيرًا، فيدعوه غروره إلى الاعتقاد بأنه لا يستحق من الله تعالى إلا أن يعامله في حياته بأحسن ما يتشهى ويرجو، وعلى أبهى وجه ممكن من الرخاء والاستقرار والراحة، حتى إذا واجه في حياته بعض الصعوبات أو تكاثفت في طريقه بعض الظلمات توترت علاقته بربه، وساءت صلته به سبحانه، وكأنّ الله تعالى قد بخسه حقه أو ظلمه قدره، فصار من حقه في المقابل أن يتمرد ويخلع زي العبودية، ولربما يترك حتى الصلاة والصيام وأداء سائر ما افترضه عليه ربه!

لكنّ صاحبنا المحسن الخائف ليس هكذا، فهو يأتي بالعمل الحسن الصالح، بيد أنّ عمله هذا مقرون دومًا بالخوف من عدم القبول، فهو أبعد ما يكون عن خصلة الإدلال على الله، وحقّ له أن يبتعد عنها هذا البعد، فما يدريه أنّ عمله مقبول عند ربه؟ وقد روي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قوله: «لو نظر الناس إلى مردود الأعمال من السماء، لقالوا: ما يتقبل الله من أحد عملًا»(١). وهكذا هم العباد الصالحون دومًا، لا يثقون بكون أعمالهم مقبولة، فقد

(١) ميزان الحكمة ٧: ٢٢.

روي أنّ بعض أصحاب الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام قالوا له: كم تتصدق؟ ألا تمسك؟ فقال: «إني والله لو أعلم أنّ الله قبل مني فرضًا واحدًا لأمسكت، ولكني والله ما أدري أَقَبِل مني شيئًا أم لا»[١].

الوجه الثالث:

لا غرابة في أن يكون المحسن الخائف أعقل الناس من جهة أنّ الدافع نحو العمل والتطور والتقدم باقٍ دومًا في داخله؛ لأنه مهما أحسن العمل والقول فإنه يظل خائفًا، غير مطمئن النفس إلى أنه قد وصل إلى هدفه وانتهى الأمر. وليس ثمة من ريب أنّ مقتضى العقل أن يظل المرء سائرًا دومًا - ما بقيت روحه بين جنبيه - نحو المزيد من الرفعة والدنو من الكمال البشري وتحقيق الهدف السامي من الحياة، وفي هذا المجال جميلٌ أن ننظر في الحديث المروي عن الإمام الصادق عليه السلام: «من استوى يوماه فهو مغبون، ومن كان آخر يومه شرّهما فهو ملعون، ومن لم يعرف الزيادة في نفسه كان إلى النقصان أقرب، ومن كان إلى النقصان أقرب فالموت خير

(١) ميزان الحكمة ٧: ٢٤.

له من الحياة»(١). إنه حديث يفيض دعوةً إلى الإيجابية في الحياة والسعي الدؤوب المتواصل نحو ما هو أفضل وأسمى، فليس مقبولًا من أي إنسان أن يظل ثابتًا في محل واحد من الكمال الإنساني، فذاك نوع من الغبن يلحقه بنفسه؛ لأنّ من حق نفسه أن تتطور دومًا. وأسوأ منه حالًا من رضي لنفسه أن تنحدر وتتراجع إلى الوراء، فهذا امرؤ ملعون، أي يستحق الطرد من رحمة الله تعالى، ومن كان هكذا فمن الخير له أن يغادر هذه الحياة التي لم يحسن التعامل معها ولم يستفد منها في تحصيل التكامل والرفعة.

إنّ الخوف من عدم قبول الأعمال من فوائده وآثاره العظيمة الواضحة أنه يجعل صاحبه لا يركن إلى ما أنجزه من عمل، ولا يقنع بما توصل إليه من إيجابيات في هذه الحياة، بل تجده دومًا متجدد العزم ومتوقد الإرادة لإنجاز المزيد ومحاولة ارتقاء أعلى القمم التي يمكنه السعي نحوها. ولولا هذا الخوف لوجدته محدود الدافعية، واطئ الأهداف، قليل الهمة، مخالفًا ما أوصى به الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام حين قال: «كن بعيد الهمم إذا طلبت»(٢).

(١) بحار الأنوار ٦٨: ١٧٤. (٢) ميزان الحكمة ١٠: ٣٦٢.

الوجه الأخير:

مما يجعل المحسن الخائف أعقل الناس: كونه جمع في داخله بين فضيلتي الخوف والرجاء، فهو إنما كان محسنًا لأنه يرجو الثواب الإلهي، وهو أيضًا خائف من ربه ومن عدم قبول أعماله، وهكذا يكون الخوف والرجاء مجتمعين في داخله، واجتماعهما كفيل بقيادته إلى ما فيه سعادته في الدنيا والآخرة. ورد في الخبر أنّ الإمام الصادق عليه السلام سُئل: «ما كان في وصية لقمان؟ فقال: كان فيها الأعاجيب، وكان أعجب ما كان فيها أنْ قال لابنه: خف الله عز وجل خيفةً لو جئته ببر الثقلين لعذّبك، وارجُ الله رجاءً لو جئته بذنوب الثقلين لرحمك. ثم قال أبو عبد الله عليه السلام: كان أبي يقول: إنه ليس من عبد مؤمن إلا وفي قلبه نوران: نور خيفة ونور رجاء، لو وُزن هذا لم يزد على هذا، ولو وُزن هذا لم يزد على هذا»[(١)].

إنّ اجتماع الخوف والرجاء له أكبر الأثر في داخل النفس وخارجها، فأما في الداخل فهذا الاجتماع معناه عدم طغيان

---

(١) أصول الكافي ٢: ٤٥.

الخوف بنحوٍ تقع النفس معه في الإياس من الرحمة الإلهية، وعدم طغيان الرجاء بكيفية يكون معها المرء عرضة للوقوع في شِباك الأمن من المكر الإلهي.

وأما في الخارج فاجتماع الخوف والرجاء معناه وجود دافعين اثنين يتعاضدان في جعل هذا الإنسان يسير في الطريق الذي أراده ربه أن يسير فيه، إذ لا معنى للخوف والرجاء إن لم يكونا دافعين ومحركين نحو العمل بما يقتضيانه. روي أنّ الإمام الصادق عليه السلام قيل له: «قوم يعملون بالمعاصي ويقولون نرجو، فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم الموت، فقال: هؤلاء قوم يترجحون في الأماني، كذبوا، ليسوا براجين، إنّ من رجا شيئًا طلبه، ومن خاف من شيء هرب منه»[١]. وروي عنه عليه السلام أيضًا قوله: «لا يكون المؤمن مؤمنًا حتى يكون خائفًا راجيًا، ولا يكون خائفًا راجيًا حتى يكون عاملًا لما يخاف ويرجو»[٢].

(١) المصدر والصفحة.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٧.

قبسة علوية: زلة الوليّ ووثبة العدوّ

الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: «احتمل زلّة وليّك لوقت وثبة عدوّك»[(١)].

يتعرض أمير المؤمنين ومولى المتقين في هذه الكلمة الوجيزة لفظًا والعميقة معنًى، إلى ناحية اجتماعية لها أهميتها الكبرى التي تستحق لأجلها كل اهتمام ورعاية؛ كيما يتحصل أي مجتمع من المجتمعات على الحياة الهانئة التي تحكمها روابط اجتماعية وثيقة وعرًى أخوية متينة. هذه الناحية هي طريقة المعاشرة مع أفراد المجتمع الذين تربطك بهم الأواصر الودية، وضرورة اختلافها عن موقفك من أعدائك الذين لا يريدون لك إلا كل شر وسوء.

وتتضح معالم طريقة المعاشرة هذه في الأبعاد الآتية:

---

(١) ميزان الحكمة ١: ٥٥.

البُعد الأول:

ضرورة تحكيم العقل والمنطق في المشكلات والتوترات الاجتماعية التي قد تنشب بين أفراد أي مجتمع من المجتمعات، فلا يصح أن يفسح الناس المجال أمام الانفعالات والتشنجات والأهواء لتكون هي المسيطرة في أجواء الخلافات، وليس مقبولًا أن تغدو ردود الافعال غير العقلائية هي الموجّهة لمواقف الناس وطريقة تعاطيهم مع أي حدث اجتماعي. الإمام علي عليه السلام حينما يطلب اتخاذ الموقف المناسب فإنه، في حقيقة الأمر، يحث على أن يحتفظ الناس برجاحة عقولهم وهدوء أعصابهم ورزانتهم الخلقية ليسيروا، من ثَمّ، نحو الموقف المطلوب منهم.

والحقّ أنّ هذا البُعد يعود أساسًا إلى ناحية يسعى الإسلام سعيًا حثيثًا إلى زرعها في وجدان كل مسلم، وهي ربط طريقة التعامل الاجتماعي - في أية حالة وفي أي موقف - بالإيمان بالله سبحانه وتعالى، فهذا الإيمان هو الذي ينبغي أن يدل المسلم على التصرف المطلوب منه في كل مقام وقضية، وهو التصرف المنسجم مع إيمانه بالله جلّ وعلا.

في المواقف التي تستثير غضب المسلم وتستفزه إلى

اتخاذ المواقف الانفعالية المتوترة، عليه أن يتذكر ربه ويلجأ إلى كنفه، فعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: «أوحى الله عز وجلّ إلى بعض أنبيائه: يا بن آدم، اذكرني في غضبك أذكرك في غضبي، لا أمحقك فيمن أمحق، وارضَ بي منتصرًا، فإنّ انتصاري لك خير من انتصارك لنفسك»(١).

ذلك أنّ الإيمان الحقيقي بالله تعالى لا بد أن ينعكس على تصرفات المؤمن، ويتجلى في سلوكه وخلقه، ويجعله يتحرى الحق ويتجنب الباطل، مثلما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ثلاث من كنّ فيه يستكمل خصال الإيمان: الذي إذا رضي لم يدخله رضاه في باطل، وإذا غضب لم يخرجه غضبه عن الحق، وإذا قدر لم يتعاطَ ما ليس له»(٢).

وهذا يتطلب من المؤمن ألّا يتحرك وفق منطق ردود الأفعال، فإيمانه لا يسمح له بأن يرد الجهالة بجهالة مثلها، أو أن يقابل السفاهة بسفاهة تحاكيها؛ كي لا ينحدر إلى مستوى الجاهلين السفهاء، فعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «من

(١) وسائل الشيعة إلى مسائل الشريعة، الشيخ الحر العاملي، تحقيق الشيخ عبد الرحيم الرباني الشيرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٩٨٣، ١١: ٢٩١.

(٢) المصدر والصفحة.

كافأ السفيه بالسفه فقد رضي بمثل ما أتى إليه، حيث احتذى مثاله»(١).

ثم إنّ إيمانه يدعوه إلى أن يعامل الناس بمثل ما يحب أن يعاملوه به، فمثلما لا يحب أن يعامله الآخرون بسفه وطيش وحمق، فكذلك ينبغي له أن يتجنب معاملتهم بهذه الكيفية. روي أنّ أعرابيًا جاء إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله، علّمني عملًا أدخل به الجنة، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «ما أحببت أن يأتيه الناس فأْته إليهم، وما كرهت أن يأتيه الناس إليك فلا تأته إليهم»(٢).

البُعد الثاني:

تعبير الإمام علي عليه السلام بالفعل «احتمِلْ» فيه تذكير بضرورة الاستعانة بالتحمل والصبر في هذا الطريق، طريق التعامل مع الآخرين. فتحكيم العقل المذكور في البُعد السالف قد لا يكون ميسورًا متاحًا إذا لم يكن صدر المرء متسعًا بالقدر الكافي لاستيعاب الآخرين وتقبّل ما يصدر عنهم في حقه،

(١) نفسه ١١: ٣٢٥.
(٢) وسائل الشيعة ١١: ٢٢٨.

ومداراتهم كما أمر الله نبيه ﷺ القائل: «أمرني ربي بمداراة الناس كما أمرني بإقامة الفرائض»(١).

إنّ هذه المداراة المطلوبة لا تتأتى ولا تتحقق إلا إذا تحلى الإنسان بالصبر على الحق مهما كان مرًا، وهذه وصية القرآن والنبي والأئمة المعصومين من أهله عليهم السلام، فأما القرآن الكريم فيقول: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾(٢)، ويقول أيضًا: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾(٣)، وأما النبي الأكرم ﷺ فقد روي عنه أنه قال: «إن استطعت أن تعمل بالصبر مع اليقين فافعل، فإن لم تستطع فاصبر، فإنّ في الصبر على ما تكره خيرًا كثيرًا، واعلم أنّ النصر مع الصبر، وأنّ الفرج مع الكرب، فإنّ مع العسر يسرًا، إنّ مع العسر يسرًا»(٤).

وأما الأئمة المعصومون عليهم السلام فكان الصبر على مرارة الحق وصيةَ أحدهم للآخر، فالإمام محمد الباقر عليه السلام روي عنه قوله: «لمّا حضرت عليَ بن الحسين الوفاة ضمّني إلى

(١) نفسه ١١: ٤٦٣.
(٢) سورة المزمل، الآية: ١٠.
(٣) سورة الإنسان، الآية: ٢٤.
(٤) وسائل الشيعة ١١: ٢٠٩.

صدره وقال: يا بنيّ أوصيك بما أوصاني به أبي حين حضرته الوفاة، وبما ذكر أنّ أباه أوصاه به: يا بني، اصبر على الحق وإن كان مرًا»[١].

وحقًا يتملك نفسَ المرء تعجبٌ كبير ممزوج بإعجاب عظيم، حينما يتأمل كيف تحمّل هؤلاء العظماء من البشر كل ذلك الأذى وسوء التعامل من الآخرين، فما زادهم ذلك إلا ثباتًا على الحق وصبرًا على المبادئ الرفيعة والأخلاق السامية، فسيّدهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عُرف واشتهر عنه قوله: «ما أوذي نبي مثلما أوذيت»[٢]، ومع هذا فقد كان يقول: «مروّتنا أهل البيت: العفو عمن ظلمنا، وإعطاء من حرمنا»[٣]، ويقول أيضًا: «بعثت للحلم مركزًا، وللعلم معدنًا، وللصبر مسكنًا»[٤]، وسيرته العطرة ملأى بمواقف متنوعة كثيرة تجأر بتحمّله أذى الناس ومداراته إياهم، مما هو أشهر من أن يُذكر.

---

(١) وسائل الشيعة ١١: ١٨٧.
(٢) بحار الأنوار ٣٩: ٥٦.
(٣) سنن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، العلامة محمد حسين الطباطبائي، كتابفروشي إسلامية، قم، ص ٥٨.
(٤) نفسه، ص ٦٣.

وتلميذه النجيب الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام صبر على ما ناله من الناس ذلك الصبر الذي وصفه بكلماته المليئة ألمًا والمتدفقة أسًى في مواضع متعددة من نهج البلاغة، كما في قوله مثلًا في خطبته المعروفة بـ «الشقشقية»: «فصبرت وفي العين قذًى، وفي الحلق شجًا، أرى تراثي نهبًا . . . فصبرت على طول المدة، وشدة المحنة»[١]. وبلغ به الأمر أنه عليه السلام لم يقم مرة على المنبر إلا قال في آخر كلامه قبل أن ينزل: «ما زلت مظلومًا منذ قبض الله نبيّه»[٢].

وفي سيرة الإمام الحسن بن علي عليه السلام نقرأ أنه لـمّا أُخرجت جنازته خرج مروان بن الحكم لحملها، فقال له الإمام الحسين عليه السلام: «تحمل اليوم جنازته، وكنت بالأمس تجرّعه الغيظ؟» فما كان من مروان إلا أن قال: «نعم، كنت أفعل ذلك بمن يوازن حلمه الجبال»[٣]. ومن المعلوم أنّ مثل مروان ما كان له أن يدرك مدى حلم الإمام لولا ما كان قد

(١) نهج البلاغة، الخطبة ٣، ص ٤٨- ٤٩.
(٢) بيت الأحزان، الشيخ عباس القمي، دار الحكمة، قم، ١٤١٢ه، ص ١٢٨، عن البحار.
(٣) الأنوار البهية في تواريخ الحجج الإلهية، الشيخ عباس القمي، دار الأضواء، بيروت ١٩٨٤، ص ٧٧.

شاهده من الغصص التي تجرعها عليه السلام والمصائب التي كابدها، فقابلها جميعًا بعظيم الصبر وكبير الحلم.

وللإمام محمد الباقر عليه السلام كلمة مؤثرة تكشف عن عميق صبره على سوء تعامل بعض المحيطين به معه، وكبير تحمّله لأذاهم، وهي الكلمة التي ورد فيها: «إني لأصبر من غلامي هذا ومن أهلي على ما هو أمرّ من الحنظل، إنه من صبر نال بصبره درجة الصائم القائم ودرجة الشهيد الذي قد ضرب بسيفه قدّام محمد صلى الله عليه وآله وسلم»(١).

البُعد الثالث:

من الأهمية بمكان عظيم أن يعرف المرء كيفية تصنيف الخلافات التي قد تقع بينه وبين الآخرين، فثمة خلافات يصدق عليها أنها «زلّة»، أي أنها تحدث بنحو غير متعمد وغالبًا ما يكون ضررها محدودًا وأثرها ضيق الأبعاد، وثمة خلافات أخرى تستحق أن توصف بأنها «وثبة»، فهي مقصودة ومتعمدة، والمراد منها إلحاق أكبر قدر ممكن من الضرر بك، فعليك إذن أن تنعم النظر في نوع الخلاف؛ لكي تحسن التصرف معه.

---

(١) وسائل الشيعة ١١: ٢٠٩.

مشكلة كثير منّا عدم التمييز بين أنواع المواقف التي يواجهونها والمشكلات التي تعترضهم مع الآخرين، فيتعاملون معها جميعًا بقوّة وحدّة وشدّة، مما قد يؤزم الأوضاع ويزيد التوترات ويصعّب الأمور. لكنّ الإمام عليًا عليه السلام يريدنا أن نكون ذوي تمييز بين ما يمكن أن يسمى «زلّة» وما يمكن أن يكون «وثبة»، وعلى العاقل منّا أن يحتمل الزلّة، ويتعامل معها التعامل الذي ينبغي لها؛ كي لا تشغله عن التهيؤ والاستعداد للمواجهة التي تستحقها الوثبة التي قد يواجهها في أي وقت.

إنّ الأصل الإسلامي في التعامل مع الزلات الصادرة عن الآخرين هو العفو والتجاوز، فهذا خير أخلاق الدنيا والآخرة كما في الحديث النبوي الشريف: «ألا أدلكم على خير أخلاق الدنيا والآخرة؟ تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك»(١).

والعفو لا يعني الضعف والوقوع في الذل، فهو لا يجلب إلا عزًا، فعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أيضًا أنه قال: «عليكم بالعفو، فإنّ العفو لا يزيد العبد إلا عزًا، فتعافوا يعزكم الله»(٢).

(١) أصول الكافي ٢: ٦٩.
(٢) المصدر نفسه ٢: ٧٠.

وفي سِير العظماء، نجد مواقف كثيرة يتجلى فيها بوضوح أنهم لا يتعاملون مع زلات الآخرين إلا بكل تسامح وتنازل، فمن ذلك ما نُقل عن الإمام موسى الكاظم عليه السلام في القصة الآتية:

عن معتّب قال: كان أبو الحسن موسى عليه السلام في حائط له يصرم، فنظرت إلى غلام له قد أخذ كارة من تمر فرمى بها وراء الحائط، فأتيته وأخذته وذهبت به إليه، فقلت: جعلت فداك، إني وجدت هذا وهذه الكارة. فقال للغلام: يا فلان، قال: لبيك، قال: أتجوع؟ قال: لا يا سيدي، قال: فتعرى؟ قال: لا يا سيدي، قال: فلأيّ شيء أخذت هذه؟ قال: اشتهيت ذلك، قال: اذهب فهي لك، وقال: خلّوا عنه»[1].

ولكي يسهل على المرء التعامل مع الزلات، فإنّ عليه أن يستعين بالتغافل في كثير من الأحيان، فلا يدقق في كل الصغائر والعثرات الصادرة عن الآخرين، ولا يتخذ منها موقفًا. وللإمام الباقر عليه السلام هنا كلمة بالغة الحكمة، أُعجب بها الجاحظ أيما إعجاب فقال: «وقد جمع محمد بن علي بن الحسين صلاح شأن الدنيا بحذافيرها في كلمتين فقال:

(١) أصول الكافي ٢: ٧٠. .

«صلاح شأن جميع التعايش والتعاشر ملء مكيال، ثلثاه فطنة، وثلثه تغافل»، فلم يجعل لغير الفطنة نصيبًا من الخير ولا حظًا من الصلاح؛ لأنّ الإنسان لا يتغافل إلا عن شيء قد فطن له وعرفه»[١].

البُعد الرابع:

يدل الحديث دلالة صريحة واضحة على ضرورة تصنيف الناس الذين قد نختلف معهم، فثمة ناس يدخلون تحت عنوان «الولي»، وهذه الكلمة تحمل دلالات متعددة، كلها إيجابية حسنة، مثل الصديق والنصير والصاحب والقريب والتابع والمحب وغيرها[٢]، وثمة ناس آخرون لا يستحقون إلا أن ينضووا تحت عنوان «العدو»، والإمام علي عليه السلام يريدنا أن نعي جيدًا الفارق بين هذين العنوانين وكل من يدخل تحتهما، فليس من الحكمة والعقل أن نتعامل مع الجميع تعاملًا واحدًا من دون تفرقة، بل لا بد أن يتفاوت تعاملنا حسب مقتضى الحال، كما قال المتنبي[٣]:

---

(١) البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، دون تاريخ، ١: ٨٤.

(٢) يراجع لسان العرب، مادة «ولي».

(٣) ديوانه، المكتبة الثقافية، بيروت، دون تاريخ، ص ٣٧٢.

ووضعُ الندى في موضع السيف بالعلا

مضرٌّ كوضع السيف في موضع الندى

إنّ هذا التفاوت في التعامل يتأسس، من جهة، على التفرقة العقلائية في المواقف التي ينبغي اتخاذها في مقابل إنسانين: أحدهما لا يقصد إلا الخير والحق، لكنه يخطئ طريقه فيقع في المشكلات والنزاعات، والآخر إنسان يريد الإيذاء والتعدي وتجاوز الحقوق والحدود فيصل إلى مرامه. وهي التفرقة التي صرّح بها الإمام علي عليه السلام في كلمته المشهورة: «لا تقاتلوا الخوارج بعدي؛ فليس من طلب الحق فأخطأه، كمن طلب الباطل فأدركه»[1]. وفي شرح هذه الكلمة قال ابن أبي الحديد: «مراده أنّ الخوارج ضلّوا بشبهة دخلت عليهم، وكانوا يطلبون الحق، ولهم في الجملة تمسّك بالدين، ومحاماة عن عقيدة اعتقدوها، وإن أخطأوا فيها، وأما معاوية فلم يكن يطلب الحق، وإنما كان ذا باطل، لا يحامي عن اعتقاد قد بناه على شبهة، وأحواله كانت تدل على ذلك...»[2].

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة ٦١، ص٩٤.

(٢) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد المعتزلي، حققه محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ١٩٦٥م، ٥: ٧٨.

ومن جهة أخرى، يتأسس هذا التفاوت في التعامل أيضًا على حرص الإسلام الشديد على حفظ الأخوّة بين المؤمنين: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾(١). وهذه الأخوّة تقتضي حفظ الحقوق فيما بينهم، بل ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «ما عُبد الله بشيء أفضل من أداء حق المؤمن»(٢).

ومهما بلغ الخلاف بين المؤمنين من العمق والشدة فإنّ هذه الحقوق لا يجوز تضييعها، وليس من المقبول إطلاقًا أن تنقلب الأخوّة عداوة، فإنّ في ذلك تضييعًا للإيمان نفسه، وفي هذا نجد الإمام الصادق عليه السلام يُسأل عن حق المؤمن على المؤمن فيجيب: «إنّ من حق المؤمن على المؤمن المودة له في صدره، والمواساة له في ماله، والخلف له في أهله، والنصرة له على من ظلمه، وإن كان نافلةٌ في المسلمين وكان غائبًا أخذ له بنصيبه، وإذا مات الزيارة إلى قبره، وأن لا يظلمه وأن لا يغشه وأن لا يخونه وأن لا يخذله وأن لا يكذّبه، وأن لا يقول له أفّ، وإذا قال له أفّ فليس بينهما ولاية، وإذا قال

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٠.
(٢) أصول الكافي ٢: ١٠٦.

له: أنت عدوي، فقد كفر أحدهما، وإذا اتهمه انماث الإيمان في قلبه كما ينماث الملح في الماء»[١].

نعم، يظل المؤمن أخًا لنا ما دام مؤمنًا، مهما بلغت هوّة الخلافات وعمق المشكلات. ولا بد للإخوة من المحافظة على قوة تماسكهم ووحدة صفوفهم في مواجهة عدوهم المشترك الذي لا يفتأ يبحث عن الثغرات التي قد يجدها في سور الأمة الإسلامية، فينفذ منها إلى مراميه الشيطانية.

البُعد الأخير:

ينبّه الإمام علي عليه السلام في كلمته هذه على ضرورة الانتباه للمستقبل، وقراءة ما هو آتٍ بعين تسعى إلى تلافي الوقوع في أية أخطار متوقعة، فهو بقوله: «لوقت» يريد منا أن نحتمل في اللحظة الراهنة زلّة الولي توقعًا لخطر وثبة العدو في أي وقت قادم. فزلّة الولي، مهما كانت، لن تبلغ في خطورتها وضررها ما يمكن أن تبلغه وثبة العدو؛ لذا وجب علينا أن نقي أنفسنا ومجتمعاتنا خطورة وثبة العدو المستقبلية من طريق احتمال زلة الولي في الوقت الحالي.

---

(١) أصول الكافي ٢: ١٠٧.

إنّ هذا الذي ينبّه الإمام عليه السلام عليه - في حقيقته - راجع إلى ما أكّدته الأحاديث الشريفة مرارًا من أنّ على المرء دومًا أن يتفكر في عواقب أعماله قبل الإتيان بها، أي أن ينظر إلى المستقبل المتوقع، فإن كانت النتيجة المؤملة من عمل ما نتيجة خيّرة فليقدم عليه، وإن كانت غير ذلك فليتجنبه قبل الوقوع في العواقب الوخيمة. روي «أنّ رجلًا أتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال له: يا رسول الله أوصني، فقال له: فهل أنت مستوصٍ إن أنا أوصيتك؟ حتى قال له ذلك ثلاثًا، وفي كلها يقول الرجل: نعم يا رسول الله، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: فإني أوصيتك إذا أنت هممت بأمر فتدبّر عاقبته، فإن يكُ رشدًا فامضه، وإن يكُ غيًا فانته عنه»(١).

وورد في وصية الإمام أمير المؤمنين عليه السلام لابنه محمد ابن الحنفية: «من استقبل وجوه الآراء عرف مواقع الخطاء، ومن تورط في الأمور غير ناظر في العواقب فقد تعرّض لمقطعات النوائب، والتدبير قبل العمل يؤمنك من الندم، والعاقل من وعظه التجارب، وفي التجارب علم مستأنف، وفي تقلب الأحوال علم جواهر الرجال»(٢).

(١) وسائل الشيعة ١١: ٢٢٣.
(٢) المصدر نفسه.

قبسة فاطمية: الصوم والإخلاص

عن سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء عليها السلام: «فرض الله الصيام تثبيتًا للإخلاص»[1].

الصوم عبادة من العبادات الإلهية الأساسية في الإسلام، وقد ذكرت لها النصوص الشرعية فوائد وآثارًا عظيمة في حياة المسلم الفردية والاجتماعية، أهمها فائدة التقوى التي تحدثت عنها الآية الشريفة: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[2]. ثم الفوائد المهمة الأخرى التي تناولتها نصوص روائية متعددة، منها هذه الرواية المروية عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام: «إنما أُمروا بالصوم لكي يعرفوا ألم الجوع والعطش فيستدلوا على

(١) بحار الأنوار ٩٦: ٣٦٨.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٨٣.

فقر الآخرة، وليكون الصائم خاشعًا ذليلًا مستكينًا مأجورًا محتسبًا عارفًا صابرًا على ما أصابه من الجوع والعطش، فيستوجب الثواب، مع ما فيه من الإمساك عن الشهوات، ويكون ذلك واعظًا لهم في العاجل، ورائضًا لهم على أداء ما كلّفهم، ودليلًا لهم في الآجل، وليعرفوا شدة مبلغ ذلك على أهل الفقر والمسكنة في الدنيا فيؤدوا إليهم ما افترض الله لهم في أموالهم»[١].

ونحاول هنا أن نتدبر في الكلمة المروية عن سيدتنا ومولاتنا فاطمة الزهراء عليها السلام في هذا الصدد، وهي التي تربط فيها بين فرض الصيام وتثبيت الإخلاص. وهذا الربط هو مقصودنا الأساس الذي نود أن نعرض له بإثارة السؤال الآتي: كيف يثبّت الصوم الإخلاص في قلوبنا؟ وهل لهذه العبادة الخاصة خصائص تميّزها وتجعلها أوثق صلةً وأقرب رحمًا من سائر العبادات بتعميق الإخلاص وتثبيته في القلب؟

يمكن هنا عرض الإجابات الآتية:

---

(١) وسائل الشيعة ٩٦: ٣٦٨.

الإجابة الأولى:

ينماز الصوم، من بين العبادات الأخرى، بما فيه من جانب خفاء، فعن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: «الصوم عبادة بين العبد وخالقه، لا يطّلع عليها غيره، وكذلك لا يجازي عنها غيره»(١). وسبب هذا الخفاء لا يخفى؛ فالصوم عبادة تتكون من النية (وهذه محلها القلب الذي لا يعرف ما فيه سوى خالقه) ومن تَرْك للمفطرات (والترك عدمٌ وليس فعلًا وجوديًا متحققًا في الخارج فيطّلع عليه الناس).

إنّ هذا الخفاء الموجود في الصوم يتيح للعبد أن يجعله خالصًا لوجه ربه، إذ لا يعلم به غيره، وقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «ما من عبد يُسرّ خيرًا إلا لم تذهب الأيام حتى يُظهر الله له خيرًا، وما من عبد يُسرّ شرًا إلا لم تذهب الأيام حتى يُظهر الله له شرًا»(٢).

وليس حال هذا الصائم المخلص كحال بعض ضعاف النفوس من الناس الذين يراؤون في أعمالهم، فيقعون في

(١) قصار الجمل، علي المشكيني الأردبيلي ١: ٣٩٥.
(٢) أصول الكافي ٢: ١٧٢.

الشرك من حيث لا يحتسبون، فعن الصادق عليه السلام: «كل رياء شرك، إنه من عمل للناس كان ثوابه على الناس، ومن عمل لله كان ثوابه على الله»(١).

ولمّا كان الصوم عبادة خفية على الآخرين، خالصة لرب العالمين، استحق أن يصفه الله تعالى بأنه له، وأنّ جزاء فاعله سيكون عليه سبحانه مباشرةً، فقد ورد في الحديث القدسي أنّ الله (تبارك وتعالى) قال: «الصوم لي وأنا أجزي به»(٢).

هذا حين نقرأ الفعل «أَجزي» بالقراءة الظاهرة، أي ببنائه للمعلوم، فالمعنى أنّ الله تعالى هو الذي يتولى إعطاء الصائم جزاءه بطريقة مباشرة، من دون توسط أي وسيط. وهناك قراءة أخرى ممكنة لهذا الفعل، حسب كلام العلماء، وهي قراءته ببنائه للمجهول «أُجزى»، فيكون المعنى عندئذ جاذبًا للانتباه وآخذًا بالألباب، فالله هو بذاته جزاء الصائم، وأي جزاء أعظم من الله تعالى نفسه؟ ومعنى ذلك أنّ الصوم يتمثل جزاؤه الحقيقي في القرب من رب العزة ونيل المكانة الخاصة عنده.

---

(١) المصدر نفسه ٢: ١٧١.
(٢) ميزان الحكمة ٥: ٤٦٥.

الإجابة الثانية:

يقوّي الصوم حالة الرقابة الذاتية في داخل الإنسان المسلم بصورة واضحة؛ ذلك أنّ صحته تتوقف على عدم ارتكاب الإتيان بأي مفطر من المفطرات التي يذكرها الفقهاء، بل على عدم وجود نية فعل المفطر في قلبه وإن لم يفعله خارجًا، وتذهب الناحية الفقهية إلى أبعد من هذا، حين تعدّ التردد في إتمام الصوم مفسدًا له، إذا لم يكن هذا التردد ناشئًا من الشك في صحة صومه(١). وهذا معناه، في النتيجة، أنّ الصوم يحتاج إلى رقابة دقيقة للذات خارجًا (كي لا يأتي الصائم بأي مفطر من المفطرات بجوارحه) وداخلًا (حتى لا تفسد نية الصوم عنده). ولمّا كانت هذه الرقابة الذاتية ناشئة من الرقابة الإلهية فقط، فإنّ المحصلة النهائية لن تكون سوى تقوية الإخلاص وتجذيره في النفس.

لقد تحدثت النصوص الشرعية بإجلال كبير عن المؤمن الذي يستحضر حقيقة كون الله تعالى يراقبه، فيقوده هذا إلى طاعته وتجنب معصيته، وبشّرته بالفوز بالنعيم الإلهي الخالد.

(١) تراجع المسألة ٩٨٠ من منهاج الصالحين، السيد علي السيستاني ١: ٢٩٨.

فمن هذا ما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام في قول الله عز وجل: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾(١) أنه قال: «من علم أن الله عز وجل يراه ويسمع ما يقوله ويفعله من خير أو شر، فيحجزه ذلك عن القبيح من الأعمال، فذلك الذي ﴿خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾»(٢).

وأرجعت نصوص أخرى سبب هذا الجزاء العظيم إلى الصعوبة الكبيرة التي تكتنف استحضار الرقابة الإلهية في كل المواقف، حتى عدّ بعضها ذلك من أشد الفروض الإلهية، فعن الصادق عليه السلام أنه قال: «من أشد ما فرض الله على خلقه ذكر الله كثيرًا. ثم قال: لا أعني سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، وإن كان منه، ولكن ذكر الله عند ما أحلّ وحرّم، فإن كان طاعة عمل بها، وإن كان معصية تركها»(٣).

وفي المقابل، ثمة روايات تتحدث عمّن لا يتصف بهذه الصفة المهمة فتعدّه ممن لا ينبغي انتظار الخير والفوز له، فعن الإمام الصادق عليه السلام أيضًا أنه قال: «ثلاث من لم تكن فيه فلا

(١) سورة الرحمن، الآية: ٤٦.
(٢) أصول الكافي ٢: ٥٢. والآية الكريمة هي من سورة النازعات، الآية: ٤٠.
(٣) المصدر نفسه ٢: ٥٣.

يرجى خيره أبدًا: من لم يخش الله في الغيب، ولم يرع في الشيب، ولم يستح من العيب»[(١)].

الإجابة الثالثة:

الصوم مدرسة للصبر في طريق طاعة الله وترك معاصيه، أي طريق الإخلاص في العبودية. فهذه العبادة تتطلب من الإنسان المسلم صبرًا على تحمل الجوع والعطش وبعض ما تميل إليه نفسه، لا سيما في الأيام التي تكون مدة النهار فيها طويلة، والجو يكون حارًا، وهذا هو الصبر على الطاعة. ثم إنّ امتناعه الطوعي عن المحللات يزرع في داخله القدرة على أن يصبر عن المحرمات فلا يقع فيها.

إنّ التمكن من الصبر على الطاعة وعن المعصية سيكفل لهذا المسلم الظفر بالنعيم الإلهي الخالد، وفق ما دلت عليه النصوص الشريفة، ومنها ما روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من قوله: «إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ عن الله يقول: أين أهل الصبر؟ قال: فيقوم عنق من الناس فتستقبلهم زمرة من الملائكة، فيقولون لهم: ما كان صبركم هذا الذي صبرتم؟

(١) وسائل الشيعة ١١: ٣٨٢.

فيقولون: صبرنا أنفسنا على طاعة الله، وصبرناها عن معصية الله، قال: فينادي منادٍ من عند الله: صدق عبادي، خلّوا سبيلهم ليدخلوا الجنة بغير حساب»[١].

وما يعنينا من هذه النقطة تحديدًا هو ارتباط الصبر على الطاعة وعن المعصية بموضوع الإخلاص وتثبيته، فما دامت الطاعة هنا طاعة لله وحده دون سواه، وما دامت المعصية هي المعصية التي يريدنا هو سبحانه أن نتجنبها، فلا مجال للريب في أنّ الصبر الذي نتحدث عنه صبر يصبّ في مصب الإخلاص ويعضده ويزكيه، إذ ليس بعد الطاعة والمعصية شيء، فقد أتى الإمامَ الصادق عليه السلام رجلٌ فقال: «يا بن رسول الله أوصني، فقال عليه السلام: «لا يفقدك الله حيث أمرك، ولا يراك حيث نهاك. قال: زدني، قال عليه السلام: لا أجد»[٢].

نعم، الصوم ليس عن الطعام والشراب والمفطرات الأخرى فقط، فعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أيسر ما افترض الله على الصائم في صيامه ترك الطعام والشراب»[٣]. بل يتعين

(١) وسائل الشيعة ١١: ١٨٩.
(٢) المصدر والصفحة.
(٣) بحار الأنوار ٩٤: ٣٥٢.

على الصائم - إذا أراد لصومه أن يكون صومًا حقيقيًا - أن يتجنب كل ما نهاه الله عنه، فعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «إذا صمت فليصم سمعك وبصرك من الحرام والقبيح، ودع المراء، وأذى الخادم، وليكن عليك وقار الصيام، ولا تجعل يوم صومك يوم فطرك»(١).

ومما اشتهر وعُرف في هذا المجال أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سمع امرأة تسب جارية لها وهي صائمة، فدعا بطعام وقال: كلي، فقالت: إني صائمة، فقال: «كيف تكونين صائمة وقد سببت جاريتك؟ إنّ الصوم ليس من الطعام والشراب»(٢).

الإجابة الرابعة:

يعلّمنا الصوم أن نخلص لله سبحانه في الطاعة، فلا نطيع سواه وسوى من دعانا هو إلى طاعته، وهذا يستلزم أن نمنع أنفسنا من الوقوع في وهدة عبادة رغباتنا وشهواتنا الدنيوية الزائلة التي نجزم بأنّ عبادتها تبعدنا عن إخلاص العبادة لربنا - جلّ وعلا - ومع هذا لا يمنعنا جزمنا هذا من طاعتها

---

(١) بحار الأنوار ٩٤: ٣٥٢.
(٢) نفسه ٩٤: ٣٥١.

وعبادتها، فنكون بهذا قد تسببنا في إبعاد أنفسنا عن ربنا، فعن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنه قال: «أبعد ما يكون العبد من الله إذا كان همه بطنه وفرجه»(١).

نعم، نطيع شهواتنا ورغباتنا ونلبي كل متطلباتها، مهما كانت، حتى إذا كانت تستدعي الوقوع في السرقات وتعاطي الربا والمخالفات الجنسية وغيرها من المحرمات. وليت الأمر اقتصر على المستوى الفردي وحده، فالمجتمع كله قد يسير في هذا الطريق الخطير فيتنازل عن كثير من جوانب الحق لأجله، كما أنّ الأمة بأجمعها قد تترك قضاياها الأهم وتتناسى مسؤولياتها وتحدياتها لمجرد أن تظل الرغبات والشهوات الدنيوية الخلابة موفّرة ومتاحة لأبنائها وبناتها.

إنّ الصوم يعوّدنا أن نصبر عن أعمق الرغبات البشرية وأشدها إلحاحًا، كالطعام والشراب والجنس، طاعةً لله وإخلاصًا له، فكيف إذن بسائر الرغبات التي قد تبدو كمالية وثانوية بالقياس إلى هذه التي تقدمت الإشارة إليها؟ لا يصح لمن تخرّج في مدرسة الصوم أن يسمح لمطامعه بأن تتسلم قيادته؛ لأنه إن فعل فسيكون بئس العبد، كما قال الإمام

(١) قصار الجمل، علي المشكيني الأردبيلي ١: ٤٩.

محمد الباقر عليه السلام: «بئس العبد عبد يكون له طمع يقوده، وبئس العبد عبد له رغبة تذلّه»(١).

يكفينا، في هذا المجال، أن نعلم أننا إن استفدنا من مدرسة الصوم في تغليب عقولنا على شهواتنا فسنغدو أفضل من الملائكة، لكننا إن ألقينا فوائد المدرسة وراءنا ظهريًا فسنكون عندئذ أسوأ حالًا من البهائم، فعن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: «إنّ الله ركّب في الملائكة عقلًا بلا شهوة، وركّب في البهائم شهوة بلا عقل، وركّب في بني آدم كلتيهما، فمن غلب عقله شهوته فهو خير من الملائكة، ومن غلب شهوته عقله فهو شرّ من البهائم»(٢).

الإجابة الأخيرة:

يستفاد من الروايات الشريفة أنّ للصوم أثرًا نورانيًا خاصًا في قلب الصائم، يتمثل في الحكمة التي ينار بها قلبه، مما يقوده بعدئذ إلى المعرفة ثم اليقين، ففي حديث المعراج أنه صلى الله عليه وآله وسلم قال: «يا رب وما ميراث الصوم؟ قال: الصوم يورث

(١) وسائل الشيعة ١١: ٣٢١.
(٢) المصدر نفسه ١١: ١٦٤.

الحكمة، والحكمة تورث المعرفة، والمعرفة تورث اليقين، فإذا استيقن العبد لا يبالي كيف أصبح، بعسر أم بيسر؟»(١)

ولا ريب أنّ إنارة القلب تستلزم إذهاب ما فيه من ظلمات وكدورات وأمراض، فيطهر من الوسوسة، ويتخلص من همومه ومنغصاته، فعن رسول الله ﷺ أنه قال: «صوم شهر الصبر وثلاثة أيام كل شهر يذهبن وحر الصدر»(٢)، وعن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام قوله: «صوم ثلاثة أيام من كل شهر: أربعاء بين خميسين، وصوم شعبان يذهب بوسواس الصدر وبلابل القلب»(٣).

إنّ القلب إذا أنير بالحكمة، وتخلّص من وساوسه وهمومه وكل ظلماته، صار أقرب إلى الله تعالى، وابتعد عن غيره، فكان الصوم بذلك مثبّتًا للإخلاص وداعيًا إليه.

---

(١) ميزان الحكمة ٥: ٤٧٥.

(٢) ميزان الحكمة ٥: ٤٧٤. «شهر الصبر» هو شهر رمضان، و«وحر الصدر» بمعنى وساوس الشيطان وما يصيب قلب الإنسان من حقد وغيظ وعداوة وكدر.

(٣) الكتاب والصفحة. و«بلابل» جمع بلبال وهو شدة الهمّ.

قبسة حَسَنية: أفضل الأبصار والأسماع والقلوب

الإمام الحسن المجتبى عليه السلام: «إنّ أبصر الأبصار ما نفذ في الخير مذهبُه، وأسمع الأسماع ما وعى التذكير وانتفع به، وأسلم القلوب ما طهر من الشبهات»[١].

يشتمل هذا الحديث الشريف على مقاطع ثلاثة، يتحدث كل منها عن جانب من الجوانب التكوينية المرتبطة بالإنسان:

فأما المقطع الأول فيتحدث عن البصر، وهذه الكلمة تأتي في اللغة لعدة معانٍ: فهي بمعنى الحاسة (أي العين)، وهي أيضًا بمعنى القوة التي فيها (أي قوة الإبصار)، وهي كذلك بمعنى البصيرة[٢]. وبقرينة ذكر «الأسماع» بعدئذ، يمكن

(١) تحف العقول، ص ١٧٠.

(٢) معجم مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق نديم مرعشلي، دار الكاتب العربي، بيروت ١٩٧٢، مادة «بصر».

استفادة أنّ المراد من «الأبصار» أحد المعنيين الأوّلين. هذا ما ينظر الحديث إليه، دون أن يعني ذلك التقليل من أهمية المعنى الأخير في حد ذاته، فهو في نفسه أهم من المعنيين الأوّلين ومتقدم عليهما. قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾(١)، وقال رسوله الأكرم ﷺ: «ليس الأعمى من يعمى بصره، ولكنّ الأعمى من تعمى بصيرته»(٢).

المقطع الأول، إذن، يفيد أنّ أفضل الأبصار وأبصرها ذاك الذي ينفذ في الخير، ويتعمق ذهابه فيه، فيدل صاحبَه على مواطن الخير ومواضعه؛ ليسير على بيّنة من أمره وهدى إلى حيث يوجد الخير فيستزيد منه ما أمكنه. وكلمة «مذهبه» هنا هي مصدر ميميّ بمعنى الذهاب.

وأما المقطع الثاني فيتناول السمع، ويدلنا على أنّ أفضل الأسماع وأسمعها هو الذي يعي ويستوعب التذكير والوعظ فينتفع؛ ذلك أنّ صاحبه ليس من ذلك الصنف من البشر الذين إذا وُعظوا ونُصحوا تأففوا وتنفروا وتحركت في بواطنهم العزة

(١) سورة الحج، الآية: ٤٦.
(٢) البرهان في تفسير القرآن، السيد هاشم البحراني، دار الأعلمي، بيروت ١٩٩٩، ٥: ٣٠٥.

الكاذبة، أو «العزة بالإثم» كما يعبّر القرآن الكريم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾(١).

العاقل هو الذي يبذل وسعه للاستفادة من المواعظ والنصائح التي تسدى إليه؛ ذلك أنّ لها أثرًا عظيمًا في إحياء القلب البشري، فقد أوصى الإمام علي عليه السلام ولده الحسن عليه السلام بقوله: «أحيِ قلبك بالموعظة»(٢). ومما لا يتطرق إليه الريب أنّ القلب الحيّ لا يكون فيه مكان للغفلة، وهذا من تأثيرات الموعظة، فعن علي عليه السلام أيضًا أنه قال: «بالمواعظ تنجلي الغفلة»(٣).

وأما المقطع الأخير من الحديث ففيه تعرّض للقلب، وما أكثر ما أولاه الإسلام من اهتمام ورعاية! وأهم صفة يتوخاها فيه هي صفة السلامة، فهي التي تنفع المرء في أشد الأوقات التي يكون فيها محتاجًا: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾(٤).

إنّ أسلم القلوب - فيما ينص الحديث - هو ذلك الذي

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٠٦.
(٢) ميزان الحكمة ١٠: ٥٣٩.
(٣) نفسه.
(٤) سورة الشعراء، الآية: ٨٨.

لا يكتفي بالابتعاد بصاحبه عن دائرة المحرمات الشرعية وحدها، بل يسعى إلى تجنب الوقوع في الشبهات أيضًا؛ كونه يعلم جيدًا أنّ الاقتراب من الأمور المشتبهة قد يسهّل على الإنسان الوقوع في المعاصي والمحرمات، فالشبهة فتنة. وفي هذا ورد عن الإمام أمير المؤمنين قوله: «احذروا الشبهة، فإنها وُضعت للفتنة»[١].

ولـمّا كان الدخول في الشبهات مظنّة الوقوع في المحرمات والمعاصي، فإنّ العاقل يفضّل دومًا أن يتجنب المهالك؛ لذا يفضّل عدم التجرؤ على ولوج عالمها، فعن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «الوقوف عند الشبهة خير من الاقتحام في الهلكة»[٢].

ويجد المرء منّا، في جوانب حياته المختلفة، مواقف متنوعة تشتبه فيها الأشياء والموضوعات الخارجية أمامه، فمن هذه مثلًا أنه قد يرى نفسه حائرًا في أنّ حالة معينة متحققة أهي من الحالات التي تكون فيها غيبة المؤمن جائزة شرعًا أم لا؟ ومنها أيضًا أنه قد تشتبه عليه الألحان المستعملة في بعض

(١) ميزان الحكمة ٥: ١٢.
(٢) ميزان الحكمة ٥: ١٣.

الأناشيد والأشعار الملحّنة، فيحار فيما إن كانت مناسبة لمجالس اللهو والطرب فتكون محرّمة شرعًا، أم لا.

في هذه المواقف تنماز القلوب البشرية: فالقلب المريض هو الذي لا يتورع عن الإقدام على الحرام مع كونه واضح الحرمة في نظره، والقلب السليم هو الذي يمنع صاحبَه من الوقوع في الحرام حين يستطيع تمييزه واضحًا، أما القلب الأسلم فهو الذي يسمو بصاحبه فوق هذا وذاك، ويحرص على طهره وسلامته من الشبهات أيضًا، فلا يأذن بالاقتراب من دائرتها، بل ينأى بعيدًا عنها.

ونستفيد من هذه القبسة التي اقتبسناها عن الإمام الحسن عليه السلام الدروس الآتية:

الدرس الأول:

ضرورة أن نحرص على أداء المسؤولية الإلهية المتعلقة بنا، فكلام الإمام الحسن عليه السلام هنا عن البصر والسمع والقلب يستدعي إلى أذهاننا فورًا قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُولَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾(١)،

(١) سورة الإسراء، الآية: ٣٦.

وهذه الآية الشريفة تذكّرنا - ولا شك - بضرورة الاستحضار الدائم في أذهاننا لهذه المسؤولية العظيمة. وفي مقام تفسيرها روي عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «يُسأل السمع عما سمع، والبصر عما نظر إليه، والفؤاد عما عقد عليه»[١].

ولا يجدينا استحضار المسؤولية في أذهاننا ما لم يكن لها تأثير عملي في سلوكنا، فعن الإمام علي زين العابدين عليه السلام أنه قال: «ليس لك أن تتكلم بما شئت؛ لأنّ الله يقول: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ وليس لك أن تسمع ما شئت؛ لأنّ الله عز وجل يقول: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾»[٢].

إنّ من المفيد في المقام أن يذكّر المرء منا نفسه دومًا بأنّ الفائدة في النتيجة راجعة إليه هو، فهو الذي ينتفع إن سعى إلى أداء المسؤولية الملقاة على عاتقه بلحاظ سمعه وبصره وفؤاده؛ لذا وجدنا الإمام الصادق عليه السلام يقول: «إنك قد جُعلت طبيب نفسك، وبُيّن لك الداء، وعرفت آية الصحة، ودُللت على الدواء، فانظر كيف قيامك على نفسك»[٣].

(١) وسائل الشيعة ١١: ١٢٧.
(٢) نفسه ١١: ١٣١.
(٣) نفسه ١١: ١٢٢.

الدرس الثاني:

حرصنا على أداء المسؤولية ينبغي ألّا يقف عند حد معيّن، فلا بد أن نسعى إلى بلوغ أعلى الدرجات التي نستطيعها لهذا الأداء، وأن نحقق أكبر الإنجازات في هذا المجال. هذا ما يرشدنا إليه تكرار استعمال صيغة أفعل التفضيل في الحديث المدروس (أبصر، وأسمع، وأسلم)، فهذا التكرار فيه ما لا يخفى من تحريك لهمّة الإنسان المؤمن حتى لا يقنع بدرجة متواضعة عادية فيما يتعلق بأدائه لمسؤولية السمع والبصر والفؤاد، بل عليه أن يطمح إلى أعلى الدرجات، فيكون من خير العباد. وقد سُئل النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن خيار العباد، فقال: «الذين إذا أحسنوا استبشروا، وإذا أساؤوا استغفروا، وإذا أُعطوا شكروا، وإذا ابتلوا صبروا، وإذا غضبوا غفروا»(١).

ومن يراجع الأحاديث الشريفة المروية عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته المعصومين عليهم السلام يجد اهتمامًا واضحًا فيها باستعمال صيغة أفعل التفضيل فيما يرتبط بجوانب الخير وأداء

(١) وسائل الشيعة ١١: ١٤٩.

المسؤولية الشرعية في المجالات المختلفة، حتى إنّ رسول الله ﷺ حين يودّ أن يدعو أصحابه إلى الاقتداء به والتشبه بصفاته السامية فإنه لا يقنع إلا باستعمال هذه الصيغة، فكأنه يطالب من حوله بأعلى درجات التشبه التي يمكنهم إدراكها. وفي هذا نجده ﷺ يقول: «ألا أخبركم بأشبهكم بي؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: أحسنكم خلقًا، وألينكم كنفًا، وأبرّكم بقرابته، وأشدكم حبًا لإخوانه في دينه، وأصبركم على الحق، وأكظمكم للغيظ، وأحسنكم عفوًا، وأشدكم من نفسه إنصافًا في الرضا والغضب»[1].

إنّ من الظواهر المؤسفة أنك تجدنا أكثر شيء حرصًا على بلوغ أرفع الدرجات وأعلى المقامات فيما يرتبط بهذه الدنيا وطيباتها وبهارجها، فلا يقنع أحدنا بالشيء اليسير والنيل القليل، وكأنّ لسان حاله يردد مع امرئ القيس بيتيه المشهورين:

فلو أنّ ما أسعى لأدنى معيشة

كفاني ولم أطلب قليل من المال

---

(١) وسائل الشيعة ١١: ١٥٠.

ولـكـنـمـا أسـعـى لـمـجـد مـؤثّـل

وقـد يـدرك الـمـجـد الـمـؤثّـل أمـثـالـي

لكن ما بال حالنا يختلف حينما تتعلق القضية بالارتباط بالله سبحانه وتعالى وأداء مسؤولياتنا الإلهية في إزاء أبصارنا وأسماعنا وقلوبنا؟ لماذا ترانا - في هذا المقام - نقنع بأقل القليل ونرضى عن أنفسنا حين تحقق أقل المطلوب؟

قد لا يكون من المجازفة بالقول أن يرتبط التعليل بمدى الأهمية التي نوليها هذا الجانب أو ذاك، فالدنيا ومتعلقاتها تحظى منا بأهمية كبرى، فليس غريبًا أن نحرص كل الحرص على التزود بأكبر قدر منها، وفي مقابل هذا لا يعني القيام بالمسؤوليات الإلهية أمرًا عظيمًا في أنظار الكثيرين؛ لذا لا يتعبون أنفسهم في السعي وراء ما هو أكثر من المتاح بسهولة ويسر.

الدرس الثالث:

يفيدنا الحديث أنّ علينا أن نحرص على صرف أسماعنا وأبصارنا وقلوبنا في الخير، أي لا بد لنا من تعمّد التعرّض للخير: فالبصر لا بد أن نجعله ينفذ في الخير، والسمع علينا

أن نعرّضه للتذكير كي يعيه وينتفع به، والقلب نحن مطالبون بإبعاده عن الشبهات فضلًا على المعاصي. وهذا معناه، في النتيجة، أنّ علينا أن نستثمر كل طاقاتنا وإمكاناتنا في التوجه نحو طريق الهداية، فمسؤولية تأديب أنفسنا هي مسؤوليتنا نحن، وعلينا أن نتحملها بأحسن ما يمكننا، فعن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنه قال: «أيها الناس، تولوا من أنفسكم تأديبها، واعدلوا بها عن ضراوة عاداتها»[1].

وإذ قد تبيّن أنّ ذاك كذلك، فلا يبقى ثمة من معنى لما يمكن أن يلاحظ عند بعضنا من عدم مثابرة حقيقية وحرص واقعي على بذل الجهد الواقعي المطلوب في طريق الهداية، وانتظار الهداية لتأتي جاهزة من السماء دونما مقدمات اختيارية قصدية، ودونما تجهيز الأرضية الصالحة لها، ولن تعدم أن تجد أناسًا يؤملون من غيرهم أن يأخذوا بأيديهم فيسيروا بها في مسلك الهداية وينقذوهم من مهاوي الرذيلة والمعصية، دون أن يكلفوا أنفسهم بذل أي عناء، مهما كان صغيرًا. ما أجدر هؤلاء بأن ينعموا النظر في قول الإمام

(١) وسائل الشيعة ١١: ١٨٣.

الصادق عليه السلام: «احمل نفسك لنفسك، فإن لم تفعل لم يحملك غيرك»[١].

الدرس الأخير:

تقتضي التربية الدينية الإلهية الحقيقية أن يحرص المرء منا على طهر ظاهره وباطنه معًا، وهذا المعنى مستفاد من الأشياء الثلاثة التي تحدث عنها الحديث الشريف: فالبصر بعض معانيه يرتبط بظاهر الإنسان وبعضها يرتبط بباطنه، على ما تقدم، والسمع متعلق بظاهره، في حين أنّ القلب هو، بطبيعة الحال، من الباطن.

إنّ الشخصية السوية التي يريدها الإسلام هي تلك التي تحرص على واقعيها الداخلي والخارجي جميعًا، فالظاهر والباطن مهمّان معًا في نظرها؛ ذلك أنّ الإنسان منا إذا انصبّ حرصه كله على الظاهر وحده، فسيكون غاية همّه أن يأتي بالأعمال الخيّرة والحسنة مهما كانت النية الدافعة إليها، ولو كانت هي نية دفع تهمة البخل والحرص عن نفسه مثلًا، أو كانت النية هي مجاملة الآخرين والتظاهر المرائي بالخير

(١) وسائل الشيعة ١١: ١٢٢.

والصلاح أمامهم، من دون أن يكون لله تعالى نصيب من القصد. وهذا الإنسان، في الواقع، غارق في غفلة عظيمة، إذ يتسبب في حرق أعماله وإحباطها، فعن النبي ﷺ أنه قال: «إنّ الملَك ليصعد بعمل العبد مبتهجًا به، فإذا صعد بحسناته يقول الله عز وجل: اجعلوها في سجّين، إنه ليس إياي أراد بها»[١]. وورد عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «اجعلوا أمركم هذا لله، ولا تجعلوه للناس، فإنه ما كان لله فهو لله، وما كان للناس فلا يصعد إلى الله»[٢].

ولئن كانت الأعمال غير ظاهرة النيات عند الناس، فتراهم يتوقعون كل الاحتمالات المتعلقة بنوع النية الدافعة إلى عمل ما، إنّ هذا لا يخفى على الله العالم بالسرائر والخبير بدفائن قلوب عباده ونياتهم، وهو الذي سيحاسبهم على أعمالهم، فيجازيهم عليها وفق نياتهم الواقعية. عن كعب بن عجرة قال: «مرّ على النبي ﷺ رجل فرأى أصحاب رسول الله ﷺ من جَلَده ونشاطه، فقالوا: يا رسول الله، لو كان هذا في سبيل الله! فقال رسول الله ﷺ: إن كان خرج يسعى على

(١) أصول الكافي ٢: ١٧١.
(٢) المصدر والصفحة.

وُلده صغارًا فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفّها فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى رياءً ومفاخرةً فهو في سبيل الشيطان»(١).

وفي مقابل ما تقدم، إذا تمحور حرص الإنسان حول باطنه وحده، فإنّ كل تركيزه سيكون على تحسين نيته وحدها، دون أن يعطي تركيزًا مماثلًا أو مقاربًا لأعماله الخارجية، فما دامت نيته حسنة وصالحة فلا ضير، إذن، أن يتصرف كيفما يحلو له، من دون قيود أو ضوابط.

حقًا لقد اهتم الإسلام اهتمامًا عظيمًا بالنية الصالحة، حتى جعلتها الأحاديث الشريفة أعظم شأنًا من العمل ذاته، فمن هذا ما عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «نية المؤمن خير من عمله»(٢)، وحتى جعلتها أيضًا أساس تصنيف الناس وتمايزهم في قيامتهم، فعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «إنّ الله يحشر الناس على نياتهم يوم القيامة»(٣)، بيد أنّ الإسلام اهتم كذلك

(١) ميزان الحكمة ١٠: ٢٧٨.
(٢) نفسه ١٠: ٢٨٢.
(٣) نفسه ١٠: ٢٧٢.

اهتمامًا بالغًا بالعمل: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[١]، حتى كان «العمل شعار المؤمن» كما قال الإمام علي عليه السلام [٢].

ولولا أهمية العمل البالغة لما جعله الله سبحانه الميزان بين خلقه، فعن الإمام علي الهادي عليه السلام أنه قال: «الناس في الدنيا بالأموال، وفي الآخرة بالأعمال»[٣].

والمحصلة هي أنّ النية والعمل هما، في نظر الإسلام، صنوان لا يفترقان، فالنية الحسنة وحدها تظل قاصرة، حتى يندغم معها العمل الصالح، فيكوّنان معًا الشخصية الإسلامية السويّة التي تتجلى فيها مبادئ الدين وقيمه العليا، وهي الشخصية ذات البصر النافذ في الخير مذهبه، والسمع الواعي للتذكير والمنتفع به، والقلب الطاهر من الشبهات.

(١) سورة التوبة، الآية: ١٠٥.
(٢) ميزان الحكمة ٧: ٨.
(٣) ميزان الحكمة ٧: ٨.

قبسة حسينية: مع الحق

الإمام الحسين بن علي عليه السلام : «ألا ترون إلى الحق لا يُعمل به، وإلى الباطل لا يُتناهى عنه؟ ليرغب المؤمن في لقاء ربه حقًّا حقًّا، فإني لا أرى الموت إلا سعادة، والحياة مع الظالمين إلا برمًا»[1].

هذا المقطع وارد في خطبة ألقاها الإمام سيد الشهداء الحسين عليه السلام في أصحابه بعد نزول كربلاء في المحرم من سنة ٦١هـ، وهو واحد من البيانات الصريحة المتعددة التي أوضح فيها الإمام عليه السلام أنّ طلب الحق هو الهدف الأساس من ثورته الخالدة، بأن يرتبط الناس بالحق، فيكون هو منطلقهم، ومجالهم، وهدفهم. كيف لا؟ وهو الذي أورد في وصيته، قبل مغادرته مدينة جده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأخيه محمد

(١) بحار الأنوار ٤٤: ٣٨١.

بن الحنفية: «فمن قبلني بقبول الحق فالله أولى بالحق»[١]، فقبوله وقبول ثورته ضد الحكم اليزيدي الأموي إنما يرتهن بقبول الحق المرتبط بالله سبحانه، وهو أولى به. ولا غرو في هذا التركيز على الحق؛ ذلك أنّ «الحق منجاة لكل عامل، وحجة لكل قائل» كما عن أمير المؤمنين علي عليه السلام[٢].

«إنّ هذه القبسة الحسينية تتضمن موارد مهمة للتعامل مع الحق».

المورد الأول: تمييز الحق من الباطل

فالمسؤولية الأولى للتعامل مع الحق هي تمييزه من سواه، فقوله عليه السلام: «ألا ترون إلى الحق» لا يستقيم له معنى إلا مع كون المخاطبين قادرين فعلًا على أن يعرفوا الحق وأن يميزوه مما سواه، ذلك التمييز الذي متى وُجد فإنه حقيق بأن يُعدّ من أشرف النظر، كما قال الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: «تمييز الباقي من الفاني من أشرف النظر»[٣].

(١) نفسه ٤٤: ٣٣٠.
(٢) ميزان الحكمة ٢: ٤٦٤.
(٣) غرر الحكم ودرر الكلم من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، أبو

إنّ أهمية هذا المورد تتجلى في حالات كثيرة تختلط فيها الرؤية عند كثير من الناس، فلا يتمكنون من التمييز بين الحق والباطل، بل قد تصل بهم الحالة إلى درجة يرون فيها الحق باطلًا والباطل حقًا، فيغدو المعروف في أنظارهم منكرًا والمنكر معروفًا، مثلما ذكر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حديثه المعروف الذي رواه عنه الإمام الصادق عليه السلام: «قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: كيف بكم إذا فسدت نساؤكم وفسق شبابكم ولم تأمروا بالمعروف ولم تنهوا عن المنكر؟ فقيل له: ويكون ذلك يا رسول الله؟ فقال: نعم، وشرّ من ذلك، كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف؟ فقيل له: يا رسول الله ويكون ذلك؟ قال: نعم، وشرّ من ذلك، كيف بكم إذا رأيتم المعروف منكرًا والمنكر معروفًا؟»(١).

وقد ابتلي المعصومون عليهم السلام في حيواتهم بأناس من هذا الصنف، تشوشت أمام أبصارهم الرؤية فشاهت بصائرهم. فمن ذلك ما يروى من أنّ «الحارث بن حوط أتى أمير

الفتح الآمدي، تحقيق محمد سعيد الطريحي، دار القارئ، بيروت ١٩٨٧، ص ٢٤٢.

(١) وسائل الشيعة ١١: ٣٩٧.

المؤمنين عليه السلام فقال: أتراني أظن أصحاب الجمل كانوا على ضلالة؟ فقال عليه السلام: يا حارث! إنك نظرت تحتك ولم تنظر فوقك فحرت، إنك لم تعرف الحق فتعرف من أتاه، ولم تعرف الباطل فتعرف من أتاه»(١). ومن هذا المنطلق جاءت وصية الإمام علي عليه السلام الخالدة: «إنّ الحق والباطل لا يُعرفان بأقدار الرجال، اعرف الحق تعرف أهله، واعرف الباطل تعرف أهله»(٢).

المورد الثاني: العمل بالحق

ليس يكفي أن يعرف المرء منّا الحق لتسقط بذلك مسؤوليته، فهو مسؤول بعد المعرفة عن العمل والتطبيق. بل إنّ معرفته ستغدو حجة عليه ووبالًا ضده إن لم تنتهِ إلى عمل؛ ذلك أنّ الغاية والثمرة من العلم هي العمل، فعن علي عليه السلام أنه قال: «ثمرة العلم العمل به»(٣).

روى عمار بن ياسر (رضوان الله عليه) قال: «بعثني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى حيّ من قيس أعلّمهم شرائع الإسلام، فإذا قوم

(١) ميزان الحكمة ٢: ٤٧٣.
(٢) نفسه.
(٣) ميزان الحكمة ٦: ٤٩٩.

كأنهم الإبل الوحشية، طامحة أبصارهم، ليس لهم همّ إلا شاة أو بعير. فانصرفت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا عمار، ما عملت؟ فقصصت عليه قصة القوم وأخبرته بما فيهم من السّهوة، فقال: يا عمار، ألا أخبرك بأعجب منهم؟ قوم علموا ما جهل أولئك ثم سهوا كسهوهم»(١).

وورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «الحق منيف فاعملوا به»(٢).

لقد اهتم الإمام الحسين عليه السلام منذ بدء حركته الثورية نحو كربلاء ببيان ضرورة اقتران معرفة الحق بالعمل، فمن يتبعه ممّن يريد نصرته لا بد أن يكون مستعدًا للعمل؛ لذا وجدناه يقول في خطبته التي ألقاها قبيل مغادرته مكة المكرمة: «من كان فينا باذلًا مهجته، موطّنًا على لقاء الله نفسه فليرحل معنا، فإني راحل مصبحًا إن شاء الله»(٣). أما هواة الحذلقة اللسانية ورفع الشعارات وإظهار الادّعاءات، ممّن لا يعرف العمل سبيلًا إلى برنامج الحياة لديهم، فلا مكان لهم في الحركة الحسينية الحقّانيّة.

---

(١) نفسه ٦: ٤٩٨. و «السهوة» يراد منها التقصير والغفلة.
(٢) نفسه ٢: ٤٦٤.
(٣) بحار الأنوار ٤٤: ٣٦٧.

المورد الثالث: سرّ حقّانيّة الحقّ

حقانية الحق إنما هي ناتجة من ارتباطه بالله جلّ وعلا؛ لذا نجد الإمام عليه السلام أردف حديثه عن الحق والباطل بقوله بعدهما مباشرة: «ليرغب المؤمن في لقاء ربه حقًا حقًا»، أو «ليرغب المؤمن في لقاء الله»، كما في رواية أخرى، مبيّنًا بذلك أنّ الحق لا يكون حقًا إلا بارتباطه بالرب سبحانه الذي هو الحق، والباطل في المقابل يكون باطلًا حين يتنافى مع ما يريده الله جلّ وعزّ.

إنّ هذه الحقيقة لجديرة بأن توقفنا على مسؤولية عظيمة وخطيرة في الوقت نفسه، هي مسؤولية أن يحرص المؤمن - بفراسته العميقة وما يقتضيه إيمانه الصحيح - على أن يتعمق الحقائق ويخترق السجف ليتوصل إلى ما يريده منه ربه، من دون أن تحجزه عن ذلك رغبات نفسه الأمارة بالسوء أو بعض العادات والتقاليد الاجتماعية المتوارثة أو بعض الأعراف والنظرات الثقافية السائدة. مثال ذلك أنّ حالة إنسانية من البغض قد تنشأ بينه وبين غيره، فهذه ليس يصح أن تقف حائلًا بينه وبين إعمال ما يريده الله سبحانه من العدالة مع كل الناس: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا

يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[1].

أجل، لا مكان للحب والبغض الشخصيين في الميزان الإلهي للحق والباطل، فكذا ينبغي أن يكون الحال في الميزان الإيماني للشخصية المؤمنة، وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «اقبل الحق ممّن أتاك به، صغير أو كبير، وإن كان بغيضًا، واردد الباطل على من جاء به من صغير أو كبير، وإن كان حبيبًا»[2].

ومما يؤسف له، في هذا الصدد، أنّ ثمة ناسًا يكوّنون تصوّرهم الخاص للحق من مصادر ثقافية مختلفة يستقون منها معلوماتهم، ويبنون في ضوئها قناعاتهم التي يؤمنون أنها الحق الصراح الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. حتى إذا وجدوا قناعاتهم هذه متعارضة مع النصوص الشرعية والفتاوى الفقهية، بل الثوابت العقدية أحيانًا، تأوّلوا هذه النصوص ليجعلوها توافق متبنياتهم، وما تورّعوا عن وصم

(١) سورة المائدة، الآية: ٨.
(٢) ميزان الحكمة ٢: ٤٧٠- ٤٧١.

الفقهاء أصحاب تلك الفتاوى بضيق الأفق والتخلف، ولن تعدم بينهم أيضًا من يعمل على إثارة زوابع التشكيك في بعض العقائد الدينية التي تتصادم مع معتقده. كل هذا يحدث، في حين أنّ القرآن المجيد يجأر ليلَ نهارَ بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾(١).

المورد الرابع: الصبر والتحمل في سبيل الحق

من أراد أن يكون مع الحق، فإنّ عليه أن يكون مستعدًا لدفع ضريبة ذلك؛ ذلك أنّ «الحق ثقيل مرّ، والباطل خفيف حلو» كما ورد في الحديث المروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (٢). ولزامٌ على صاحب الحق أن يتحلى بالصبر والتحمل؛ لكي يكون قادرًا على القيام بأعباء المسؤولية. وله في الإمام الحسين عليه السلام أسوة حسنة، فقد كان مثالًا خالدًا للصبر على البلاء وتحمّل اللأي، حتى لقد أقدم على الموت حين تطلّب منه الحق، وهذا شأن عظيم، لكنّ الأعظم أنه وجد الموت في

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٣٦.
(٢) ميزان الحكمة ٢: ٤٦٧.

سبيل الحق سعادةً وهناءً: «فإني لا أرى الموت إلا سعادة، والحياة مع الظالمين إلا برمًا»، ووجدناه في يوم استشهاده يلهج بالقول:

الموت خير من ركوب العار
والعار أولى من دخول النار
والله من هذا وهذا جاري(١)

إنّ الإمام سيد الأحرار عليه السلام يعلّمنا - بقوله وفعله معًا - أنّ تعاملنا مع الحق ليس ينبغي له أن يكون قضية فكرية اعتقادية محضة، لا تتعدى جانب اليقين النظري، ولا تجد لها أي انعكاس خارجي حقيقي. بل لا بد لهذا الفكر من أن ينعكس على مشاعرنا وأرواحنا، وأن يظهر ذلك كله على جوارحنا، ويتجلى في سلوكنا، فيجعلنا مستعدين للصبر والتحمل في سبيل الحق، مهما كانت التبعات صعبة وثقيلة، مثلما أراد الإمام أمير المؤمنين أن نكون إذا قال: «خض الغمرات إلى الحق حيث كان»(٢).

---

(١) بحار الأنوار ٤٤: ١٩٦.
(٢) ميزان الحكمة ٢: ٤٧٥.

لقد بلغت قضية الصبر على الحق وتحمّل نتائجه الصعبة درجةً كبرى من الأهمية في أنظار الأئمة المعصومين من أهل البيت جعلتهم يتواصون بها فيما بينهم، فعن الإمام محمد الباقر عليه السلام أنه قال: «لمّا حضرت أبي علي بن الحسين عليه السلام الوفاةُ ضمّني إلى صدره، ثم قال: أبنيّ أوصيك بما أوصاني أبي حين حضرته الوفاة، وبما ذكر أنّ أباه عليه السلام أوصاه به: أي بنيّ، اصبر على الحق وإن كان مرًّا»(١).

وحقًا إذا بلغت الأمة هذا المستوى من التعاطي الإيجابي مع الحق، بنحو تكون معه مستعدة للصبر والتحمل والتضحية والعطاء، فإنها ستكون ذات إرادة حية قوية عصيّة على محاولات كسر شوكتها وجهود إطفاء جذوتها، وستكون رافضة - بحق وصدق وليس في مستوى الشعارات فقط - لكل ما تراه سببًا للخنوع والضياع والوقوع في وهدة الذل والهوان.

المورد الأخير: الظلم مانع من الحياة الحقة:

إذا كان من شأن الحق أن يملأ الحياة نورًا وسعادة، ويجعلها زاخرة بالقيم السامية والمثل العليا التي تطمح لها

(١) ميزان الحكمة ٢: ٤٦٧.

الفطرة الإنسانية السليمة وتنادي بها كل الشرائع السماوية ويرنو إليها البشر الباحثون عن الخير، فإنّ من شأن الظلم، في المقابل، أن يمنع من تحقق تلك الحياة بكل ما فيها من رقيّ وتسامٍ، ويجعلها حياةً منحطة لا تستحق أن يعيرها المرء أي اهتمامٍ، فهي ليست «إلا برمًا» كما عبّر الإمام عليه السلام . و«البرم» بالتحريك: مصدر بَرِم بالأمر، بالكسر، برمًا إذا سئمه، فهو بَرِمٌ ضَجِر.

نعم، الحياة مع الظلم وفي ربقة الظالمين لا تستحق الإشادة والوصف بالخير، فهي ليست سوى برم وضجر، وتعبير الإمام الحسين عليه السلام مشتمل على أسلوب المبالغة حين أخبر بالمصدر، مثلما في قول العرب: «زيدٌ عَدْلٌ». إنها الضجر نفسه، وليست شيئًا مضجرًا فحسب. وليس الأمر مستغربًا حين نلحظ ما للظلم من آثار سلبية مقيتة وخطيرة، عبّر عنها الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام بقوله: «الظلم في الدنيا بوار، وفي الآخرة دمار»[١].

ولا ينبغي أن يفوتنا هنا أن نلحظ أنّ الإمام الحسين عليه السلام يريد للشخصية المؤمنة أن تحيا «حياة»، لا أن تعيش «عيشًا»،

---

(١) ميزان الحكمة ٥: ٥٩٥. والبوار هو الهلاك.

وشتان ما بينهما من بون؛ لذا كان هذا الإحساس بما يتركه الظلم من أثر قاتم في الحياة. ذكر أبو هلال العسكري في مقام التفرقة بين الكلمتين ما يأتي: «العيش اسم لما هو سبب الحياة من الأكل والشرب وما هو بسبيل ذلك، والشاهد قولهم: معيشة فلان من كذا، يعنون مأكله ومشربه مما هو سبب لبقاء حياته، فليس العيش من الحياة في شيء»[1].

إنّ من شأن الشخصية المؤمنة ألّا تقنع بأن تعيش مثلما تعيش البهائم، كلّ همّها أكلها وشربها وتمتعها بلذائذ الدنيا، فهي شخصية باحثة عن الأهداف السامية للحياة والقيم العليا فيها، مثلما قال الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: «فما خلقتُ ليشغلني أكل الطيبات، كالبهيمة المربوطة همّها علفها، أو المرسلة شغلها تقمّمها»[2].

وهذه النظرة الهادفة هي التي تجعل المؤمن لا يصبر على الظلم ولا يرضى بأن يعيش في ظله، عيشةً لا تعني سوى البرم والضجر.

---

(١) الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، مكتبة بصيرتي، قم، د.ت، ص٨٢.
(٢) نهج البلاغة، الرسالة ٤٥، ص ٤١٨.

قبسة سجادية: العمر وقيمته

ورد في دعاء من أدعية الإمام علي بن الحسين السجاد زين العابدين عليه السلام: «وعمّرني ما كان عمري بِذلة في طاعتك، فإذا كان عمري مرتعًا للشيطان فاقبضني إليك قبل أن يسبق مقتك إليّ أو يستحكم غضبك عليّ»[1].

يوقفنا الإمام السجاد عليه السلام في هذا المقطع من هذا الدعاء الشريف الغني بالدروس الخلقية والتربوية على المحاور المهمة الآتية:

المحور الأول: أهمية العمر

لا مرية في أنّ عمر الإنسان هو رأس ماله في تجارته مع ربه، فإن هو أفاد منه كما ينبغي ظفر بسعادة الدنيا والآخرة،

(١) من دعاء «مكارم الأخلاق» من أدعية الصحيفة السجادية.

وإن كانت الأخرى فقد ضيّع الدارين معًا، وبتعبير الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام: «إنّ عمرك مهر سعادتك إن أنفذته في طاعة ربك»[١].

ولا شك أيضًا في أنّ هذا العمر ينقضي بانقضاء الزمان، ويتصرم رويدًا رويدًا بمرور الليالي وتعاقب الأيام. وكلما انتهى منه جزء انتهى معه شيء من رأس مال الإنسان، فعن الإمام علي عليه السلام أيضًا: «ما نقصت ساعة من دهرك إلا بقطعة من عمرك»[٢]. بل يذهب الإمام، في بعض ما روي عنه، إلى أبعد من هذا الشأو، حين يجعل من ذهاب الزمان ذهابًا لبعض الإنسان نفسه: «إنما أنت عدد أيام، فكل يوم يمضي عليك يمضي ببعضك...»[٣].

ولمّا كان هذا هكذا، تعيّن على العقلاء أن ينتبهوا إلى أهمية أعمارهم، وخطورة موقعها من سعادتهم أو شقائهم، فلا يفرّطوا فيها، ولا يضيّعوها سدًى، بل عليهم أن يكونوا أكثر شيء شُحًّا وبخلًا بها، مثلما أوصى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيما

(١) ميزان الحكمة ٦: ٥٤٢.
(٢) نفسه ٦: ٥٣٨.
(٣) نفسه.

يروى عنه: «كن على عمرك أشح منك على درهمك ودينارك»[١].

إنّ مشكلة كثير من الناس تكمن في كونهم لا يستشعرون قيمة أعمارهم، ولا يأبهون لها، فتراهم لا يستحضرون إطلاقًا حقيقة أنّ هذه الأعمار في نقصان مستمر، وأنّ هذه الدنيا ليست باقية لهم، مثلما لم تبقَ لغيرهم، فلا يتكلفون مؤنة التفكير في الإفادة من الأعمار، ولا يتجشمون عناء التخطيط لأجلها، اللّهم إلا حين يتعلق الأمر بالإقبال على الدنيا والاستفادة من فرص الاستزادة من نعيمها وبهارجها.

المحور الثاني: العمر وطاعة الله

ما دام هذا العمر يتصرّم وينقضي، فإنّ على العاقل أن يبادر إلى الإفادة منه واستثماره فيما يفيد، فعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّ العمر محدود، لن يتجاوز أحد ما قدّر له، فبادروا قبل نفاد الأجل»[٢]. وعن الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام: «بادروا العمل، وخافوا بغتة الأجل، فإنه لا

(١) ميزان الحكمة ٦: ٥٣٩.
(٢) نفسه.

يرجى من رجعة العمر ما يرجى من رجعة الرزق»[١]. وما أجمل التصوير البياني وما أعمقه في كلمة الإمام علي عليه السلام أيضًا: «إنّ الليل والنهار يعملان فيك فاعمل فيهما، ويأخذان منك فخذ منهما»[٢]!

إنّ خير ما يمكن للمرء أن يستفيد به من عمره هو أن يوظفه في طاعة الله سبحانه وتعالى، فيكون العمر كله «بذلة» في ذلك كما في دعاء السجاد عليه السلام: «وعمّرني ما كان عمري بذلة في طاعتك». نعم، لا قيمة للعمر في حد نفسه، ولا أهمية لأن يمتد ويستطيل، إلا إذا كان بذلة في طاعة الرب (جلّ وعلا)، ففي مدة كون العمر - لأنّ «ما» هنا مصدرية ظرفية - بِذلة في هذه الطاعة يستحق أن يُحيا وأن يمتد، وإلا فلا.

و«بذلة» قد تكون بمعنى المبذول، من باب استعمال المصدر بمعنى اسم المفعول، فيكون المعنى: عمّرني مدة كون عمري مبذولًا في طاعتك، وقد تكون الكلمة بمعنى الثوب المستهلك البالي في كثرة العمل في سبيل الله، بناءً على

(١) ميزان الحكمة ٦: ٥٣٩.
(٢) نفسه.

ما ذهب إليه السيد ابن معصوم المدني في شرحه للدعاء، إذ قال: «والبذلة بالكسر على وزن سدرة: ما يُمتهن ولا يصان من الثياب في الخدمة، والفتح فيها لغة، قيل: وهي استعارة للعمر، شبّه الحياة المصروفة في طاعة الله بالثوب المستعمل في الخدمة، بجامع الامتهان والابتذال، فاستعار لها لفظة البذلة، وهي استعارة مطلقة، لكنها في غاية الحسن لغرابة التشبيه فيها»(١). والمعنى بناءً على هذا: وأطل يا رب عمري ما دام عمري مستهلكًا مصروفًا في طاعتك، شأنه في هذا شأن الثوب المبتذل المستعمل في الخدمة.

وحقًا يحرص العظماء والناجحون في الحياة، أشد ما يكون الحرص، على أن يستفيدوا من كل لحظات أعمارهم في طريق طاعة ربهم، ويحرصون كذلك على أن يعلّموا هذا لغيرهم، ولعلّ هذا واحد من أكبر أسرار نجاحهم وتفوقهم. من القصص الكثيرة التي تُنقل في هذا الصدد أنّ المرجع الراحل سماحة السيد البروجردي (قدس سره) كان أحيانًا يتأخر دقائق عن موعد تدريسه؛ بسبب كثرة اشتغاله بشؤون

(١) رياض السالكين شرح الصحيفة السجادية، السيد ابن معصوم المدني، الطبعة الحجرية القديمة، مؤسسة آل البيت، إيران، د.ت، ص ٢١٥.

المرجعية وإدارة أمور الأمة. لكنه في مرة من المرات تأخر دقائق أكثر من تلك، فاعترض عليه واحد من طلابه بلطف من منطلق أنّ أوقات طلبته تضيع هكذا، وإذا بسماحة المرجع الكبير يخاطبه بقوله: «لماذا تضيّعون أوقاتكم؟ أنا حفظت اثني عشر جزءًا من القرآن الكريم في أوقات الانتظار. أنتم كذلك لا تجلسوا عاطلين، بل استفيدوا من دقائق الانتظار لحفظ الآيات القرآنية»[١].

المحور الثالث: العمر المرتع للشيطان

في الصورة المقابلة، نجد الإمام السجاد عليه السلام يحذّر الإنسان، بصورة غير مباشرة، من أن يتخلى عن طاعة ربه، فيجعل من عمره، بإرادته واختياره، مرتعًا للشيطان يرتع فيه كيفما يحلو له. وإذا ما تردّى الإنسان إلى هذا المنحدر الخطير فالموت أفضل له من الحياة؛ لأنّ طول الحياة لا يزيده من ربه إلا بُعدًا، وعن أهدافه السامية في الحياة إلا تخليًا؛ لذا وجدنا الإمام المعصوم عن الذنوب كلها يدعو بلسان العبد

(١) قصص وخواطر من أخلاقيات علماء الدين، الشيخ عبد العظيم البحراني، منشورات طليعة النور، قم، ص ٩٠.

المعرّض للذنوب قائلًا: «فإذا كان عمري مرتعًا للشيطان فاقبضني إليك قبل أن يسبق مقتك إليّ أو يستحكم غضبك عليّ». وهو بعبارته هذه يستعيد ما ورد عن جدته فاطمة الزهراء عليها السلام في دعائها: «اللهم بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق، أحيني ما علمتَ الحياة خيرًا لي، وتوفّني إذا كانت الوفاة خيرًا لي»(١).

نعم، إنها لخسارة كبيرة أن ينفق الإنسان عمره، مهر سعادته، في سبيل الشيطان، فيقضي حياته في غفلة عما يراد به، وعن الشقاء الذي هو منتهٍ إليه لا محالة، فيصير عمره حجة عليه بدلًا من أن يكون حجة له. وهي الخسارة التي استحقت من أمير المؤمنين علي عليه السلام أن يتحسر على صاحبها: «فيا لها حسرةً على كل ذي غفلة، أن يكون عمره عليه حجة، وأن تؤديه أيامه إلى الشقوة»(٢).

وهذه الخسارة ينبغي للمرء أن يزداد حذرًا منها كلما امتد به العمر؛ لأنّ الإساءة في آخر العمر أخطر نتيجةً وأسوأ عاقبةً من الإساءة في أوّله، فقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال:

---

(١) ميزان الحكمة ٦: ٥٤٨.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة ٦٤، ص ٩٥.

«من أحسن فيما بقي من عمره لم يؤاخذ بما مضى من ذنبه، ومن أساء فيما بقي من عمره أُخذ بالأول والآخر»[١].

لقد كان اختيار الإمام زين العابدين كلمة «مرتع» اختيارًا موفقًا لأبعد الحدود؛ نظرًا لما لهذه الكلمة من أبعاد دلالية لا توجد لغيرها من الكلمات التي كان من الممكن اتخاذها بدائل لها. فمن هذه الأبعاد الدلالية، وفق ما ذكره علماء اللغة:

أ - «الرتع» كلمة تنقل ذهن سامعها أو قارئها مباشرة إلى عالم البهائم؛ ذلك أنّ «الرتع أصله أكل البهائم»[٢]. ومعنى هذا أنّ الشيطان حين يتخذ من عمر الإنسان مرتعًا له فإنه يفعل في هذا العمر فعلَ البهيمة في المرعى، إذ تظل تأكل من زرعه وتأكل، ويكتفي الإنسان الغافل بالتفرج على عمره وهو يؤكل على مرأى منه ومسمع، دون أن تأخذه الغيرة عليه، أو تتملكه الحسرة على ضياعه سدًى. بل قد يساعد الشيطان على هذا الأكل حين يسلس له القياد ويترك الحبل له على الغارب ليفعل ما طاب له وحلا.

(١) سفينة البحار، الشيخ عباس القمي، دار الأسوة، طهران ١٤٢٢ه‍، ٦: ٤٥٦.
(٢) معجم مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، مادة «رتع».

ب - كلمة «مرتع» لا تُستعمل في أي مرعى كان، وإنما في خصوص المرعى الخصب. جاء في لسان العرب: «وقوم مرتعون: راتعون، إذا كانوا مخاصيب، والموضع مرتع، وكل مُخصب مرتع»[(١)]. ويدل هذا على أنّ الشيطان لا يتسلط على حياة الإنسان ويتخذها مرعى لنفسه إلا حين يرى هذه الحياة قد أخصبت وأينعت ثمارها وآتت أُكُلها، وهو إذ ذاك لا يستهدف إلا أكثر ما فيها من خصب وبركة وثمار. أفيرضى هذا الإنسان أن يقدّم للشيطان، عدوه اللدود، أفضل ما في عمره وأحسنه طُعمةً سائغة سهلة؟

ج - «المرتع» لا يطلق على أي أكل تأكله البهائم مهما كان مقداره، وإنما تطلق في حالة كون هذا الأكل أكلًا شرهًا، ففي اللسان: «ابن الأعرابي: الرتع الأكل بشَرَه»[(٢)]. فليحذر الإنسان، إذن، من أنه إذا ترك عمره للشيطان ليأكل منه، فإنه لن يقنع بالأكل القليل المحدود، بل سيأكل كل ما كان في وسعه أن يتناوله،

(١) لسان العرب، ابن منظور، مادة «رتع».
(٢) لسان العرب، مادة «رتع».

وسيظل يسعى إلى تناول المزيد، دون رادع يردعه أو مانع يمنعه.

د - لئن كانت النقطة المتقدمة متعلقة ببُعد دلالي كميّ لكلمة «الرتع»، فإنّ للكلمة دلالة أخرى أيضًا على البُعد النوعي المكاني؛ ذلك أنّ «الرتع» هو الأكل الذي لا يتقيد بمكان معيّن دون غيره من الأماكن، إذ يقال: «رتعت الماشية ترتع رتعًا ورتوعًا: أكلت ما شاءت، وجاءت وذهبت في المرعى نهارًا»[١].

وبناءً على ما تقدم، فإنّ الشيطان سيسعى إلى اتخاذ عمر الإنسان كله، من أوله إلى آخره، مرتعًا له. ومهما سعى هذا الإنسان إلى إبعاد الشيطان عن مراحل معيّنة أو أزمنة ما من عمره، فإنّ الشيطان لن ينفكّ عن مساعيه الأكيدة الهادفة إلى الاستحواذ على العمر كله، وإن كان ذلك بدرجات متفاوتة من ناحية نوع حضوره المدمر أو مقداره.

هـ - ثمة للكلمة أيضًا دلالة واضحة على اللهو والتنعّم، ففي اللسان أيضًا: «يقال: خرجنا نرتع ونلعب أي ننعم

---

(١) لسان العرب، مادة «رتع».

ونلهو»[١]. الشيطان، إذن، حين يتخذ من عمر الإنسان مرتعًا له فإنه لا يستهدف أية غاية تعود على هذا الإنسان بصلاح. إنه يريد أن يلهو وأن يتنعم، وما اللهو عنده إلا بأن يجعل ابنَ آدم يفعل ما يريده مبتعدًا عن مرضاة ربه، وما تنعّمه إلا بأن يتخذه من أوليائه ويجعله في حزبه. قال تعالى: ﴿... إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾﴾[٢].

المحور الأخير:

ذكر الإمام زين العابدين عليه السلام في ذيل المقطع المنقول من دعائه مدة زمنية لا بد للمرء من الانتباه إليها والتيقظ بشأنها: «قبل أن يسبق مقتك إليّ أو يستحكم غضبك عليّ».

---

(١) نفسه.
(٢) سورة النساء، الآيات: ١١٧ - ١١٩.

نعم، فمهما عصى الإنسان ومهما سدر في غيّه، فإنّ عليه أن يتدارك أمره قبل سبق المقت الإلهي - والمقت هو أشد البغض - إليه، وقبل استحكام الغضب الرباني عليه. والأصل في هذا التدارك أن يحاسب نفسه، فيحبسها عن التوغل في ضلالاتها، ويعيدها إلى صراط ربها القويم وهداه المنير، وإلا كان الموت خيرًا له من الحياة.

إنّ العاقل لا يظل منتظرًا حتى يستحق المقت واستحكام الغضب من الله تعالى، بل يسارع إلى مغفرة ربه: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾(١).

ومن أراد التوبة الصادقة إلى ربه لم يؤجلها ولم يسوّف أمرها، فعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «توبوا إلى الله، فإني أتوب إلى الله في كل يوم مائة مرة»(٢). إنها التوبة اليومية التي لا تعرف التأجيل يومًا بعد يوم، وهي التوبة العاجلة التي دعا إليها الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام إذ قال: «إن قارفت سيئة فعجّل محوها بالتوبة»(٣).

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٣٣.
(٢) ميزان الحكمة ١: ٥٤٣.
(٣) ميزان الحكمة ١: ٥٥٤.

قبسة باقرية: غش النفس

الإمام محمد الباقر عليه السلام : «كفى بالمرء غشًا لنفسه أن يبصر من الناس ما يعمى عليه من أمر نفسه، أو يعيب غيره بما لا يستطيع تركه، أو يؤذي جليسه بما لا يعنيه»[١].

مما لا خلاف فيه ولا ريب أنّ مبدأ جلب المصلحة ودفع المفسدة من أكثر المبادئ عمقًا وأشدها تأثيرًا في داخل كل إنسان منّا، فكلنا نتحرك بتحريك من هذا المبدأ، فتجدنا نملأ الحياة عملًا وحركةً ونذرعها جيئةً وذهابًا باحثين عما يحقق لنا مصالحنا ويدفع عنّا ما نخشاه ونكرهه، على أنّ البشر يتفاوتون فيما بينهم في طبيعة فهمهم للمصلحة وتعريفهم للمفسدة، تبعًا لتفاوت مرجعياتهم الفكرية وانتماءاتهم الأيديولوجية، لكنّ

(١) تحف العقول عن آل الرسول، ص ٢١٦.

هذا التفاوت لا ينفي الاشتراك في أصل البحث عن المصلحة ودفع المفسدة، بل يؤكده.

بيد أنّ ثمة ناسًا يقعون في المفارقة بين ما يبتغونه نظريًا وما يأتون به فعليًا، فتراهم من الناحية النظرية يريدون المصلحة ويكرهون المفسدة، لكنهم من الناحية الفعلية قد يسيرون في طرق تخالف مصالحهم أو توقعهم في المفاسد. والأعجب أنّ منهم من يذهب إلى أبعد من هذا فيزيّن لنفسه ما هو خلاف مصلحته، فيراه على خلاف واقعه، ويؤدي به هذا إلى أن ينساق في طريق المفسدة، غافلًا عن خطورته عليه. وهذا هو الإنسان «الغاشّ» لنفسه؛ ذلك أنّ «الغش: نقيض النصح، وهو مأخوذ من الغَشَش: المشرب الكدر»[1].

يذكر الإمام الباقر عليه السلام في حديثه الشريف ثلاثًا من حالات غش النفس، هي:

الحالة الأولى: بصر عيوب الآخرين دون الذات

فهذا الغاشّ الأول لنفسه يتسم بتفاوت حاد بين موقفيه من ذاته ومن الآخرين، ففي تعامله مع ذاته يعمى عن العيوب، إما

(١) لسان العرب، مادة «غشش».

لأنه لا يراها من أساس، والإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول: «من أشد عيوب المرء أن تخفى عليه عيوبه»[١]، ويقول أيضًا: «أعقل الناس من كان بعيبه بصيرًا، وعن عيب غيره ضريرًا»[٢]، وللإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ كلمة في هذا الصدد ورد فيها: «أنفع الأشياء للمرء سبقه الناسَ إلى عيب نفسه»[٣]. وإما لأنه يراها لكنه، بعد ذلك، يسوّغها ويستصغر شأنها فتصبح متقبّلة في نظره، وقد حذّر الإمام أمير المؤمنين علي عَلَيْهِ السَّلَامُ من هذه الحالة بشدة إذ قال: «إياك أن تكون على الناس طاعنًا، ولنفسك مداهنًا، فتعظم عليك الحوبة وتحرم المثوبة»[٤]، وعن الإمام جعفر الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قال: «لا تنظروا في عيوب الناس كالأرباب، وانظروا في عيوبكم كهيئة العبيد»[٥].

نعم، إنّ في كل مجتمع أناسًا من هذا القبيل، يستعملون التسويغ واللين والمداهنة حين يتعلق الأمر بأخطائهم

(١) ميزان الحكمة ٧: ١٤٤.
(٢) نفسه ٧: ١٤١.
(٣) نفسه ٧: ١٤٠.
(٤) نفسه ٧: ١٤٢.
(٥) نفسه ٧: ١٤١.

وعيوبهم، لكنّ الوضع يختلف تمام الاختلاف حينما يكون الأمر متعلقًا بأخطاء الآخرين وسلبياتهم، ففي هذه الحالة يشتد تدقيقهم، وتقوى حساسية مجسّاتهم، فلا يفوتهم أي خطأ دون أن يرصدوه ويكتشفوه، ولربما يسعون بعد ذلك إلى تكبير حجمه وتضخيم أثره، وقد لا تهدأ نفوسهم حتى ينشروه ويبثوه بين الناس في أوسع نطاق ممكن، وما أسهل هذا في عصرنا الذي تُتناقل فيه الأخبار والشائعات والاتهامات بأسرع من طرفة العين بفضل التطور الهائل لوسائل الاتصال وبرامج التواصل الاجتماعي!

إنّ الأحاديث الشريفة الواردة عن المعصومين عليهم السلام تدعو إلى العكس من هذا تمامًا، فعلى العاقل أن يبصر عيوبه ويشغل نفسه بها عن الاهتمام بعيوب غيره، ورد عن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام قوله: «طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس»(١).

بل لقد ذهبت روايات إلى مرمى أبعد، حين حذّرت المهتمّ بعيوب غيره والناسي لعيوبه من كونه قد مُكر به، فعن

(١) ميزان الحكمة ٧: ١٤٠.

الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «إذا رأيتم العبد متفقدًا لذنوب الناس ناسيًا لذنوبه فاعلموا أنه قد مُكر به»(١).

الحالة الثانية: تعييب غيره بما لا يستطيع تركه

الجملة المذكورة هنا «أو يعيب غيره بما لا يستطيع تركه» تحتمل تفسيرين اثنين، وإن كان أحدهما أقوى وأظهر من الآخر:

أما التفسير الأول - وهو الأقوى - فأنْ يكون المراد أن يعيب المرء غيرَه بصفة لا يستطيع العائب نفسه أن يتركها. وما أشد جهل هذا الإنسان الذي يعلم يقينًا بوجود صفة سيئة فيه، ويجزم قاطعًا بأنه لا يتمكن من تركها والتخلص منها في حياته، ومع هذا لا يتورع عن تعييب غيره إن رأى الصفة نفسها فيه!

ولو كان لدى هذا الإنسان مُسكة من عقل، أو أثارة من ضمير، لكان علمه بعيبه الذي لا يستطيع التخلص منه حريًا بمنعه عن التعرض لعيوب غيره، مثلما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ليردّك من الناس ما تعلم من نفسك»(٢)، وعن

(١) ميزان الحكمة ٧: ١٤٠.
(٢) المصدر نفسه ٧: ١٤١.

الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: «ليُلهك عن ذكر معائب الناس ما تعرف من معائبك»(١).

وأما التفسير الآخر فأنْ يكون المقصود أن يعيب المرء غيرَه بصفة لا يستطيع المعيب أن يتركها، بناءً على كون الضمير المستتر «هو» الذي هو فاعل الفعل «يستطيع» راجعًا على «غيره».

أجل، قد يكون الشخص الآخر مطّلعًا على عيب نفسه، وراغبًا في تركه، لكنه لم يتمكن من ذلك إلى الآن، فمن الخطأ الفاحش أن نعيبه ونعيّره به، ففعلنا هذا سيترك آثارًا سلبية وخيمة في نفسه، وربما يجعله يتوغل في العيوب أكثر فأكثر بدلًا من محاولة التخلص منها. وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قوله: «من عيّر أخاه بذنب لم يمت حتى يعمله»(٢)، فمثلما تدين تدان، ومن حفر حفرة لأخيه وقع فيها، هكذا هي سنة الحياة.

ونُقل عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «من وصايا الخضر

(١) ميزان الحكمة ٧: ١٤١.
(٢) نفسه ٧: ١٥٤.

لموسى عليه السلام: يا بن عمران، لا تعيّرن أحدًا بخطيئته، وابكِ على خطيئتك»[1].

إنّ الموقف الإيجابي تجاه هذا الإنسان العارف بعيبه والعازم على تركه لو استطاع، هو أن نستر عليه عيبه، وأن نأخذ بيده فنساعده على تركه ونعينه على شيطانه ونفسه الأمارة بالسوء. فعن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «من علم من أخيه سيئة فسترها، ستر الله عليه يوم القيامة»[2].

الحالة الأخيرة: إيذاء الجليس بما لا يعني

تتحدث هذه الحالة عن خصلة سيئة حذرتنا النصوص الإسلامية منها تحذيرًا مؤكدًا ومشددًا، وهي خصلة الإيذاء، فالمؤمن لا يؤذي أخاه المؤمن؛ لأنه لا يرتضي لنفسه أن يتسبب في إيذاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم القائل: «من آذى مؤمنًا فقد آذاني»[3]. وإنّ فعلًا قبيحًا كهذا ليعدّ جريمة عظمى لا تصلح الدنيا كلها كفارة لها، فعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «من

(١) ميزان الحكمة ٧: ١٤١.
(٢) نفسه ٧: ١٤٥.
(٣) ميزان الحكمة ١: ٨٦.

أحزن مؤمنًا ثم أعطاه الدنيا لم يكن ذلك كفارته لم يؤجر عليه»[١]. وورد عن الإمام علي عليه السلام قوله: «قال الله تبارك وتعالى: ليأذن بحرب مني من آذى عبدي المؤمن»[٢].

ولا يكتفي الإسلام بالتحذير من إيذاء المؤمنين وحدهم، حتى يتخطى ذلك إلى التحذير من إيذاء سائر الناس بلا مقتضٍ ولا موجب، فعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «أذلّ الناس من أهان الناس»[٣]. بل بلغ من دقة الإسلام وحرصه في هذا المجال أنْ نهى عن إيذاء المخلوقات الأخرى من غير البشر أيضًا مهما بدت تافهة وصغيرة، فعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: «فازوا والله الأبرار، أتدري من هم؟ هم الذين لا يؤذون الذر»[٤].

وقد قدّم الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في هذا المجال للبشرية درسًا راقي العظمة وبديع الدلالة حين بيّن أنه لن يؤذي نملة حتى لو أُعطي الدنيا كلها في سبيل ذلك، قائلًا: «والله لو

(١) ميزان الحكمة ١: ٨٧.
(٢) نفسه.
(٣) نفسه ١: ٨٦.
(٤) نفسه. و«الذر» صغار النمل.

أُعطيت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها على أن أعصي الله في نملة أسلبها جُلب شعيرة ما فعلته...»[1].

وإذ قد تبيّن هذا، فما معنى الجملة المذكورة في حديث الإمام الباقر عليه السلام: «أو يؤذي جليسه بما لا يعنيه»؟

هنا، أيضًا، تحتمل الجملة المذكورة تفسيرين اثنين يرتبطان بتحديد مرجع الضمير في «يعنيه»:

فالتفسير الأول - وهو الأقوى - يقوم على أساس أن يكون مرجع الضمير هو «المرء»، فيكون المراد أنّ هذا المرء يؤذي جليسه بما لا يعني المرء المؤذي نفسه. الحالة هنا، بناءً على هذا التفسير، هي حالة بعض الناس الفضوليين الذين يحبون دومًا التدخل فيما لا يعنيهم، ويجتذبهم بقوة التلصصُ على الأسرار والاطّلاع على خصوصيات الآخرين وشؤونهم الشخصية التي قد لا يحبون أن يطّلع الآخرون عليها. هؤلاء حين يجالسون أحدًا فإنّ كل عنايتهم تكون منصبّة على أن ينتزعوا منه بعض أسراره، أو يستدرجوه للبوح ببعض ما يخصه ولا يخصهم هم أصلًا، فبذلك يؤذون جليسهم بما لا

(١) نهج البلاغة، الخطبة ٢٢٤، ص ٣٤٧.

يعنيهم من أساس. ولمثل هؤلاء قال الإمام علي عليه السلام: «اقصر همّك على ما يلزمك، ولا تخض فيما لا يعنيك»(١).

والتفسير الآخر للجملة ينبني على أساس أنّ مرجع الضمير في «يعنيه» هو «جليسه»، أي أن يؤذي المرء جليسه بما لا يعني الجليسَ ولا يهمه. إنّ هذه الحالة، بناءً على هذا التفسير، ترتبط بأناس بلغ بهم حب الفضول حدًا جعلهم لا يكتفون بأن يكونوا فضوليين بأنفسهم، بل يرغبون في أن يكون الآخرون من حولهم مثلهم أيضًا؛ لذا تراهم إذا جالسوا أحدًا فإنهم يريدونه أن يخوض معهم في أحاديث لا تعنيه ولا تهمه، ولا يرغب في الخوض فيها، وقد يضغطون عليه ليجاريهم ويجاملهم حتى إنهم قد يتسببون في تأذيه منهم.

ولو أنّ هؤلاء الفضوليين ثابوا إلى رشدهم، لكان كفّ أذاهم عن جليسهم خيرًا لهم وأفضل، بل كان صدقة يثابون عليها عند ربهم، فعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «كفّ أذاك عن الناس، فإنه صدقة تصدّق بها عن نفسك»(٢)، وعن الإمام زين

---

(١) ميزان الحكمة ١٠: ٣٦٧.
(٢) ميزان الحكمة ١: ٨٧.

العابدين علي بن الحسين عليه السلام أنه قال: «كف الأذى من كمال العقل، وفيه راحة للبدن عاجلًا وآجلًا»(١).

وفي الختام، يحسن بنا أن نتوقف عند ملحوظات وجيزة تبرز لنا أهمية ما تناوله الإمام الباقر عليه السلام في حديثه الشريف:

أ - ليس الحديث هنا عن أي نوع كان من غش النفس، فهو حديث عن أسوأ أنواعه وأقبحها؛ لذا نجد الإمام عليه السلام عبّر عنه بقوله: «كفى بالمرء غشًا لنفسه»، وكأنه لا يمكن للمرء أن يصل في غشه لنفسه إلى ما هو أخطر وأحطّ شأنًا من هذا.

ب - اختيار الإمام كلمة "المرء» على وجه التحديد دون غيرها ربما يكون إشارة إلى أنّ حالات غش النفس التي ذكرها هي حالات تتنافى مع الإنسانية الحقة ولا تنسجم مع قيمها الرفيعة. هكذا هي الدلالة اللغوية للكلمة المختارة، إذ «المروءة: الإنسانية... والمرء: الإنسان»(٢). فمن أراد أن يكون كاملًا في الإنسانية فإنّ عليه أن يتخلص من هذه الحالات الرديئة.

(١) ميزان الحكمة.
(٢) لسان العرب، مادة «مرأ».

ج - استعمل الإمام عليه السلام حرف العطف «أو» للعطف بين الحالات، وهذا يفيد أنّ كل حالة من الحالات المذكورة هي، لوحدها، من أعلى الغش. وليس أعلى الغش متطلبًا اجتماع الحالات كلها معًا. وفي هذا دلالة صريحة على مدى خطورة كل حالة على انفرادها، فما بالك إذا اجتمعت حالتان منها أو الثلاث معًا؟

د - يتبدى حرص الإسلام الشديد على الحياة الاجتماعية السليمة من الآفات من خلال عدم اقتصار الحديث الشريف على طلب ترك التعييب باللسان أو الفعل خارجًا، فقد تجاوز ذلك إلى الحرص على «البصر» أيضًا - سواء أريد به الباصرة أو البصيرة على ما تقدم - بأن لا يبصر المرء من عيوب الناس ما يخفى عليه من عيوب ذاته. وفي هذا روي عن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام قوله: «شر الناس من كان متتبعًا لعيوب الناس عميًا لمعائبه»[1].

(١) ميزان الحكمة ٧: ١٤٣.

قبسة صادقية: احتياجات أخوية

الإمام جعفر بن محمد الصادق ؑ : «تحتاج الإِخوةُ فيما بينهم إلى ثلاثة أشياء، فإن استعملوها وإلا تباينوا وتباغضوا، وهي: التناصف، والتراحم، ونفي الحسد»[1].

هذا الحديث واحد من أحاديث شريفة كثيرة وردت عن النبي وأهل بيته (صلوات الله وسلامه عليهم) متناولةً موضوع الأُخوّة والإخوة. وقبل محاولة تحليل الحديث واكتشاف فوائده، ينبغي لنا أن نفهم المراد من «الإخوة» فيه، فقد يقال إنّ المقصودين في الحديث هم الإخوة النسبيون وحدهم، ولعل هذا ما دعا الشيخ ابن شعبة الحراني إلى إيراد هذا الحديث في كتابه «تحف العقول» ضمن سياق أحاديث الإمام الصادق ؑ عن الأقرباء وما يتعلق بهم (حق الأب، وحق

(١) تحف العقول، ص ٢٣٨.

الولد... إلخ). لكن الظاهر أنّ هذا التقييد بلا مقتضٍ؛ فالكلمة وردت مطلقة، ومن المعلوم أنّ للأخوّة في الإسلام مفهومًا واسعًا يشمل المؤمنين جميعًا: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾(١)، وليس ثمة ما يقتضي التقييد بإخوة النسب دون غيرهم.

لقد ذكر الإمام عليه السلام في حديثه ثلاثة أشياء تحتاج الإخوة إليها، ولا بد لهم من استعمالها، وإلا آل أمرهم إلى التباين (أي التباعد) والتباغض. وقبل الشروع في بيان هذه الأشياء الثلاثة، ينبغي لنا التوقف عند بعض الملحوظات النصّيّة المرتبطة بتعبيرات الحديث:

أ - تأنيث الفعل «تحتاج» إنما هو بملاحظة الصيغة الجمعية التي أتى الفاعل «الإخوة» عليها، وهذا قد يستفاد منه أنه تنبيه على أهمية هذه الحالة الجمعية، وأنها تحتاج منا إلى توفير كل ما من شأنه المحافظة عليها، فالقيمة الحقة للأُخوّة إنما تبرز وتتحقق حين يكون الإخوة محافظين على إخائهم وتجمّعهم وتآلفهم.

ب - اختيار الفعل «تحتاج» دون سواه فيه دلالة على أنّ

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٠.

الأشياء التي يذكرها الحديث ليست من الأشياء الثانوية الكمالية، بل هي ضرورية ولا بد من توفيرها بقدر الطاقة والوسع.

ج - إسناد الاحتياج إلى الإخوة «تحتاج الإخوة» يشير - وإنْ بنحو غير مباشر - إلى أنّ من السذاجة الركون والاطمئنان إلى مجرد وجود الأخوّة الإيمانية، فيتصرف كل واحد من الإخوة كما يريد ويشتهي في حقوق إخوانه، ولربما يحرمهم تلك الحقوق اتكالًا على وجود رابطة الأخوّة وقوّتها. هذه سذاجة بلا مرية؛ ذلك أنّ هذه الرابطة - في حد نفسها - غير مضمونة البقاء دومًا، بل قد تنقلب إلى ما يضادّها تمامًا (تباينوا وتباغضوا).

د - التعبير بـ «فيما بينهم» يدل على عدم كفاية وجود هذه الأشياء من طرف دون آخر، أو من بعض الأطراف دون بعضها. إنّ تحقق النتيجة المرجوة من الأشياء المذكورة مرهون بأن تتحول إلى حالة عامة في المجتمع الإسلامي (فيما بينهم). وينبغي هنا أن تُلاحظ أيضًا صيغة التفاعل الموجودة في «التناصف» و«التراحم»، فهي تحمل دلالة صريحة على الاشتراك.

هـ - أسلوب الشرط (فإن استعملوها وإلا تباينوا وتباغضوا)

يفيد أنّ المعرفة النظرية بهذه الأشياء لا تكفي وحدها، بل لا بد من الجهود الفعلية والمساعي العملية، وهذه يرجع الاختيار فيها إلى الإخوة أنفسهم، فإن أرادوا الخير لأخوّتهم فلا محيص لهم عن استعمالها، وإلا فلينتظروا النتائج الوخيمة التي تسببوا فيها وجرّوها لأنفسهم، وهي التي ستتمثل في التباين والتباغض.

ولننتقل، بعد هذا، إلى الأشياء الثلاثة المهمة:

الشيء الأول: التناصف

هو من «النَّصَفة» بمعنى العدل وعدم الظلم. وليس من عاقل لا يعرف مدى أهمية العدل في حفظ الأخوّة وقوّتها، فهو الذي يكفل إعطاء كل ذي حق حقه، وعدم التعدي على حق الآخر، مهما كان ضعيفًا ولا يمكنه أن يأخذ بحقه أو حتى أن يطالب به، وبهذا يكون الإنصاف موجبًا لتحقيق الألفة والتقارب وإزالة الخلافات والكدورات، فعن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: «الإنصاف يرفع الخلاف ويوجب الائتلاف»[1].

---

(١) الحكم الزاهرة عن النبي وعترته الطاهرة، علي رضا الصابري اليزدي، مؤسسة النشر الإسلامي، قم ١٤٠٥ه، ص ٢١٥.

بيد أنّ ثمة بشرًا لا يحبون الإنصاف إلا إذا كان يحقق مصالحهم وما يبتغونه، وحين يقود إلى ترجيح ما يرونه ويعتقدونه، أما إذا تغير الحال واستدعى الإنصاف ترجيح كفة الآخرين، فحينئذ يتناسونه ولا يقيمون له أي وزن، اللّهم إلا إذا أجبرتهم قوةٌ ما على الرضوخ له والقبول به. هؤلاء هم أكثر شيء بُعدًا عما ذكره الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام في قوله: «أنصف الناس من أنصف من نفسه بغير حاكم عليه»(١).

نعم، إنّ الإنصاف علامة الإيمان الحقيقي؛ لذا روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «من واسى الفقير من ماله، وأنصف الناس من نفسه، فذلك المؤمن حقًا»(٢). ومن هنا لا يكون مستغربًا أن يقود صاحبه إلى الجنة، فعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «من يضمن لي أربعة بأربعة أبيات في الجنة؟ أنفق ولا تخف فقرًا، وأفشِ السلام في العالم، واترك المراء وإن كنت محقًا، وأنصف الناس من نفسك»(٣).

---

(١) نفسه.
(٢) أصول الكافي ٢: ٩٣.
(٣) نفسه ٢: ٩١.

الشيء الثاني: التراحم

لا يمكن لأية أخوّة أن تكون راسخة وثابتة ودائمة ما لم تكن مبنيّة على أساس قوي من التراحم. هكذا علّمنا الله (جلّ جلاله)، فهو الرحمن، وهو الرحيم، وبرحمته التي سبقت غضبَه يعامل عباده ومخلوقاته. لكن إذا أراد هؤلاء رحمته فعلًا فإنّ عليهم أن يشيعوا التراحم فيما بينهم، فعن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن كنتم تريدون رحمتي فارحموا»[١].

الرحمة - في المنظور الإلهي - شأن كوني عام، ولا محيص لمن أراد للرحمة الإلهية أن تنزل عليه من السماء عن أن يسعى هو، في المقابل، إلى أن ينشر الرحمة في الأرض. وإلى هذا أشار الحديث النبوي المعروف: «ارحم من في الأرض يرحمك من في السماء»[٢].

لقد بلغ من شدة اهتمام الروايات الشريفة بالتراحم أنْ عدّته حقًا من الحقوق المتبادلة بين المسلمين، وعليهم أن يتعاونوا معًا في القيام بها، فعن الإمام أبي عبد الله

(١) الحكم الزاهرة، ص ٢١٥.
(٢) نفسه، ص ٢١٦.

الصادق عليه السلام أنه قال: «يحق على المسلمين الاجتهاد في التواصل والتعاون على التعاطف والمواساة لأهل الحاجة، وتعاطف بعضهم على بعض، حتى تكونوا كما أمركم الله عز وجلّ: ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾[(١)] متراحمين، مغتمّين لما غاب عنكم من أمرهم، على ما مضى عليه معشر الأنصار على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم»[(٢)].

وغير خافٍ أنّ الحديث يذكر المسلمين، كل المسلمين، على اختلاف مدارسهم ومناهجهم واتجاهاتهم الفكرية، فالإسلام يجمعهم جميعًا تحت غطائه، وعليهم كلهم أن يجتهدوا قدر وسعهم في نشر ثقافة التراحم والتعاون على التعاطف فيما بينهم. هكذا هو الإسلام، وهذه توصياته لأتباعه، فأين من ذلك ما ينشره الغافلون عنه - وإن تظاهروا به وتحركوا باسمه - من ثقافة الكراهية والتفرقة والفتنة بين المسلمين؟

(١) سورة الفتح، الآية: ٢٩.
(٢) أصول الكافي ٢: ١٠٩.

الشيء الأخير: نفي الحسد

الحسد آفة من الآفات العظيمة التي قد تصيب الإنسان فتعود عليه وعلى مجتمعه بأوخم النتائج وأقبح الآثار، وهو يختلف عن الغبطة، فالحسد معناه أن يتمنى المرء زوال النعمة عن أخيه لتكون له هو من دونه، في حين أنّ الغبطة تعني أن يتمنى المرء مثل ما لدى أخيه من نعمة من دون أن يتمنى زوالها عنه، وقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «إنّ المؤمن يغبط ولا يحسد، والمنافق يحسد ولا يغبط»[(١)].

وإنّ نظرة سريعة إلى الروايات الشريفة الواردة في الباب لكفيلة بتوضيح مدى ما للحسد من موقع خطير وآثار عظيمة، فهو:

أ - مرتبط أساسًا بالكفر والشرك:

- فعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «إياكم أن يحسد بعضكم بعضًا، فإنّ الكفر أصله الحسد»[(٢)].

---

(١) ميزان الحكمة ٢: ٤٢٩.
(٢) نفسه ٢: ٤٢٦.

- وقال أيضًا عليه السلام: «يقول إبليس لجنوده: ألقوا بينهم الحسد والبغي، فإنهما يعدلان الشرك»[١].

ب - يأكل الإيمان والحسنات:

- قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إياكم والحسد، فإنّ الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب»[٢].
- وقال الإمام الباقر عليه السلام: «إنّ الحسد ليأكل الإيمان كما تأكل النار الحطب»[٣].

ج - يمرض الجسد:

- قال الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام: «صحة الجسد من قلة الحسد»[٤].
- وقال أيضًا: «الحسد يذيب الجسد»[٥].
- وأيضًا: «الحسد يضني الجسد»[٦].

د - يضرّ القلب والروح:

- قال الإمام علي عليه السلام: «الحسد حبس الروح»[٧].

---

(١) ميزان الحكمة ٢: ٤٢٦.
(٢) نفسه.
(٣) نفسه.
(٤) ميزان الحكمة ٢: ٤٢٧.
(٥) نفسه.
(٦) نفسه.
(٧) نفسه ٢: ٤٢٢.

- وعنه عليه السلام: «ما رأيت ظالمًا أشبه بمظلوم من الحاسد، نفس دائم، وقلب هائم، وحزن لازم»(١).
- وعن الإمام الصادق عليه السلام: «لا يطمعنّ الحسود في راحة القلب»(٢).

هـ - يوهن العلاقات الاجتماعية:

- ورد عن الإمام علي عليه السلام قوله: «من ترك الحسد كانت له محبة عند الناس»(٣).
- وكذلك: «الحاسد يظهر ودّه في أقواله، ويخفي بغضه في أفعاله، فله اسم الصديق وصفة العدو»(٤).
- وأيضًا: «بئس الرفيق الحسود»(٥).

و - يضيّع الدنيا والآخرة:

- روي عن أمير المؤمنين علي عليه السلام قوله: «ثمرة الحسد شقاء الدنيا والآخرة»(٦).
- وعن الصادق عليه السلام أنه قال: «الحاسد مضرّ بنفسه قبل

(١) ميزان الحكمة ٢: ٤٢٣.
(٢) نفسه ٢: ٤٢٥.
(٣) نفسه ٢: ٤٢٣.
(٤) نفسه.
(٥) نفسه ٢: ٤٢٥.
(٦) نفسه ٢: ٤٢٣.

أن يضرّ بالمحسود، كإبليس أورث بحسده لنفسه اللعنة، ولآدم عليه السلام الاجتباء»[1].

ولـمّـا كـانـت لـلـحـسـد كـل هـذه الـخـطـورة الـفـرديـة والاجتماعية، في الدنيا والآخرة، حتى قال عنه الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام : «لا بليّة أعظم من الحسد»[2]، فقد اختلف تعبير الإمام الصادق عليه السلام عنه اختلافًا واضحًا عن تعبيره عن الشيئين اللذين تقدّم ذكرهما، ففي الشيئين المتقدمين كان الإمام عليه السلام قد قال: «التناصف والتراحم»، وكان المناسب لهذا أن يقول في الأخير: ونفي التحاسد؛ حتى تكون الصيغة متحدة في الأشياء الثلاثة. لكنه لم يقل هذا، بل قال: «ونفي الحسد»، بصيغة أقوى وأعمق دلالةً. وسرّ قوة هذه الصيغة كامن في أنها تفيد إرادة انتفاء أصل حقيقة الحسد وجنسه من الأساس، بغض النظر عمّن يمكن أن يصدر عنه، فالحسد بما هو حسد لا بد أن ينتفي من الوجود، مهما كانت تجلياته وحالات ظهوره. ومن الواضح أنّ قولك: «لا أريد حسدًا» أبلغ وأقوى من قولك: «لا أريدك يا فلان أن

(١) ميزان الحكمة ٢: ٤٢٣.
(٢) الحكم الزاهرة، ص ٢٩١.

تحسد أحدًا»، أو: «لا أريدكما أيها الصديقان أن تتحاسدا».

وبعد، فالملاحظ أنّ حديث الإمام الصادق عليه السلام قد سعى - لأجل الإصلاح الاجتماعي وحفظ شأن العلاقات الأخوية السليمة - إلى تناول كل الحالات المتصوّرة في علاقة المؤمن بأخيه المؤمن: فإن كنتما أنت وأخوك متعادلين في النعم الإلهية فعلى كل منكما أن ينصف الآخر ولا يظلمه، وإن كان هو أقل منك شأنًا وأدنى فإنّ عليك أن ترحمه، وإن كان هو أعلى منك فعليك ألّا تحسده على ما آتاه الله إياه من فضله.

ثم الملاحظ أنّ الحديث الشريف قد استعمل صيغة التفاعل في شيئين: «التناصف والتراحم»، مما يدل على ضرورة الاشتراك بين الفردين أو الأفراد في تحقيق هذين الشيئين؛ كيما تكون النتائج وفق المؤمَّل والمرتجى، وإلا فجهود فرد واحد لن تجدي ما لم تجد لها دعمًا من جهود الآخرين. وفي الشيء الأخير (الحسد) استعمل الحديث صيغة أشدّ وأقوى، حين نفى جنس الشيء من أصله، كما تقدّم.

قبسة كاظمية: الذنوب والبلاء

الإمام موسى الكاظم عليه السلام: «كلما أحدث الناس من الذنوب ما لم يكونوا يعملون، أحدث الله لهم من البلاء ما لم يكونوا يعدّون»[1].

استأثر موضوع «الذنوب» باهتمام بالغ في النصوص الشرعية الإسلامية، من القرآن الكريم والسنة الشريفة المأثورة عن النبي وأهل بيته الأطهار (صلوات الله وسلامه عليهم)، فقد تناولت جوانب مختلفة منه، وعرضت لأبعاد متنوعة تتعلق به. والحديث الشريف الذي نتناوله هنا واحد من تلكم الأحاديث الكثيرة، وفيه ربط الإمام الكاظم عليه السلام ربطًا وثيقًا مباشرًا بين الذنوب والبلاء، فالذنوب تقود إلى البلاء لا محالة، لا بل إنّ العلاقة بين الجانبين تتخذ لنفسها مدًى نوعيًا

(١) تحف العقول، ص ٣٠٣.

لافتًا للنظر، فكلما «أحدث» الناس أنواعًا من الذنوب ما كان لهم سابق عمل بها، «أحدث» ربهم لهم أنواعًا من البلاء مما لم يكونوا يعدّون، أو «يعرفون» كما في رواية أخرى.

إنّ من المعروف أنّ «البلاء» هو بمعنى الاختبار أو الامتحان، وهذا مفهوم واسع يتجلى في تجليات ومصاديق غير محصورة تختلف باختلاف موارد الاستعمال. وفي محل كلامنا يستفاد من قرينة المقام ولحن الخطاب وكون الكلام متعلقًا بعاقبة الذنوب تحديدًا، أو بتعبير الفقهاء: من مناسبة الحكم للموضوع، يستفاد أنّ البلاء هنا يراد به العقاب والشدائد والمكاره التي يلقاها الإنسان منا في حياته الدنيوية. وهنا لا بد من وقفة تساؤل عن سر هذا الارتباط النوعي بين الذنوب والبلاء، وفق ما دل عليه الحديث الشريف، فلماذا تنوّع ذنوب الناس يستتبع تنوّع العقوبات؟ وماذا وراء كون اختراع البشر ذنوبًا جديدة، ما كان لهم بها سابق عهد، مؤديًا إلى أن يواجهوا في دنياهم عقوبات وشدائد لم يعرفوها ولم يعدّوها من قبل؟

هذا التساؤل المهم يمكن الجواب عنه بما يأتي:

الجواب الأول:

دلّتنا نصوص شرعية متعددة على أنّ عقاب الذنوب ليس عقابًا مقصورًا على الآخرة وحدها، فثمة عقوبات دنيوية أيضًا. وإذا كان هذا هكذا، فمن المنطقي والمتوقع أن تتنوع هذه العقوبات الدنيوية بتنوع الذنوب، وإذا ما سوّلت للبشر نفوسهم أن يتفننوا في ابتكار أنواع جديدة من المعاصي، فإنّ من الطَبَعي أن تكون عاقبة هذا أنْ تبرز لهم عقوبات ما كانوا يعهدونها في السابق.

ومن النصوص الشرعية الدالة على وجود العقوبات الدنيوية قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «اتقوا الذنوب فإنها ممحقة للخيرات...»(١)، فلا يأمن المرء منا على النعم والخيرات التي عنده إذا انجرّت قدمه إلى درب الذنوب؛ لأنّ تلكم الذنوب قد تتسبب في زوال ما عنده ومحْق ما أوتيه ونُعّم به، وهذه عقوبة دنيوية ليس من السهل على أحدنا أن يتخيلها، فكيف يكون في مستطاعه أن يعايشها؟

وثمة روايات شريفة دلّتنا على أنواع معيّنة من الذنوب

(١) ميزان الحكمة ٣: ٤٦٥.

تكون عقوبتها عاجلة في هذه الحياة الدنيا، دون أن تحتمل التأجيل إلى الآخرة. فمن ذلك مثلًا ما روي عن رسول الله ﷺ: «ثلاثة من الذنوب تعجل عقوبتها ولا تؤخر إلى الآخرة: عقوق الوالدين، والبغي على الناس، وكفر الإحسان»(١)، ومنه أيضًا ما عن أمير المؤمنين علي عليه السلام إذ سُئل: أي ذنب أعجل عقوبةً لصاحبه؟ فأجاب: «مَن ظلم من لا ناصر له إلا الله، وجاور النعمة بالتقصير، واستطال بالبغي على الفقير»(٢).

إنّ هذا البيان للعقوبات الدنيوية غير القابلة للتأجيل يشير، من جهة، إلى فظاعة هذه الذنوب ومدى شدة قباحة الإتيان بها. وهو أيضًا، من جهة أخرى، يسحب الحجة من أيدي أولئك الذين قد تسوّل لهم نفوسهم الأمارة بالسوء أن يؤجلوا التوبة ولا يستعجلوا بها ما دام وقت الحساب الأخروي لم يحن بعد، فإنْ جاءهم الموت قبل توبتهم فإنّ لهم رحمة الله الواسعة في الآخرة، ولهم أيضًا شفاعة الشافعين، ولن يضيعوا بين هذه وتلك. هؤلاء ينبغي لهم أن يتدبروا النصوص

(١) ميزان الحكمة ٣: ٤٧٠.
(٢) نفسه.

الشرعية الدالة على العقوبات الدنيوية المعجلة للمعاصي، فقد تأخذهم هذه العقوبات في حين غرة، قبل أن يوفقوا للتوبة، وقبل أوان العقاب الأخروي الذي يخططون للنجاة منه!

الجواب الثاني:

يستفاد من القرآن الكريم والأحاديث الشريفة «أنّ بين أعمال الناس والحوادث الكونية رابطة مستقيمة، يتأثر إحداهما من صلاح الأخرى وفسادها»(١). وما دام الوضع هكذا، فإنّ من المنتظر أن تكون لذنوب البشر آثارها التكوينية الطبيعية المباشرة في المظاهر الكونية من حولهم، ولا يكون من المستغرب، والحال هكذا، أن تؤدي ذنوبهم الجديدة المستحدثة إلى آثار مستجدة من الفساد والدمار والكوارث الطبيعية وغير الطبيعية، فوجود العلاقة النوعية بين الطرفين يغدو حقيقة منطقية لا يمكن إنكارها: الذنوب الجديدة تؤدي إلى عقوبات دنيوية جديدة.

ومن الآيات القرآنية الصريحة في الدلالة على الارتباط المباشر بين أعمال البشر وحالة العالم من حولهم قولُه تعالى:

---

(١) الميزان في تفسير القرآن ١٦: ١٩٦.

﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[١]، فأجزاء هذا العالم تشكّل فيما بينها وجودًا متكاملًا مترابطًا، تحكمه وحدة حقيقية. وحين يسير الإنسان في طريق الشر والمعصية فإنه، في الواقع، يفسد هذا التكامل العجيب الذي يحكم الكون، ولا مناص من أن ينعكس هذا الإفساد عليه في صورة كوارث ومصائب ونوازل في هذه الحياة الدنيا، ولا بد له أن ينتظر أن يقوده ابتكاره للذنوب الجديدة إلى مظاهر من الفساد الكوني ما كانت تخطر بباله.

ومن الروايات الدالة على وجود هذا التأثير الكوني المباشر لأعمال الإنسان، قولُ الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام: «ما من سَنة أقلّ مطرًا من سنة، ولكنّ الله يضعه حيث يشاء، إنّ الله عز وجل إذا عمل قوم بالمعاصي صرف عنهم ما كان قدّر لهم من المطر»[٢]. وليس المطر المذكورة قلّته ههنا سوى مثال لما يمكن أن يعتري مظاهر الحياة الكونية من تغييرات سلبية ليس منشؤها الواقعي سوى سوء

(١) سورة الروم، الآية: ٤١.
(٢) ميزان الحكمة ٣: ٤٦٧.

تصرفات البشر وسفههم وطيشهم المبعد عن طريق الله سبحانه وتعالى.

الجواب الثالث:

إنّ «الفساد في البر والبحر» المذكور في آية سورة الروم المتقدمة مذكور بلفظ مطلق، فهو، بناءً على هذا، ليس مقصورًا على الفساد الذي يعتري الحياة الإنسانية من خارجها، بل يشمل أيضًا الفساد الاجتماعي الذي قد يداهم هذه الحياة من داخلها. يقول العلامة الطباطبائي (قدس سره) في تفسيره للآية الشريفة: «والمراد بالفساد المصائب والبلايا الظاهرة فيهما الشاملة لمنطقة من مناطق الأرض من الزلازل وقطع الأمطار والسنين والأمراض السارية والحروب والغارات وارتفاع الأمن، وبالجملة كل ما يفسد النظام الصالح الجاري في العالم الأرضي، سواء كان مستندًا إلى اختيار بعض الناس أو غير مستند إليه، فكل ذلك فساد ظاهر في البر أو البحر، مخلّ بطيب العيش الإنساني»[1].

وإذ قد تبيّنت الدلالة المطلقة لكلمة «الفساد»، وتبيّن

(١) الميزان في تفسير القرآن ١٦: ١٩٥- ١٩٦.

سابقًا أنّ الفساد بلاء، ما عاد مستغربًا أن يقود تفنن الإنسان في ابتكار المفاسد الاجتماعية إلى بلايا اجتماعية ما كانت معهودة في سابق الأزمنة؛ فالارتباط بين الذنوب الاجتماعية وآثارها الاجتماعية في حياة الناس ارتباط مباشر لا يحتاج إلى عميق تحليل.

إنّ في وسع كل إنسان منا أن يلاحظ، في زماننا هذا على وجه خاص، أنّ ارتفاع وتيرة ظلم الإنسان لأخيه الإنسان وتنوّع وسائله تنوعًا غير مألوف ولا معهود في الماضي وتنوّع الذنوب الاجتماعية المختلفة قد جرّ المجتمعات البشرية إلى أوحال بلايا ومستنقعات مصائب اجتماعية عظيمة صارت البشرية تئنّ من ثقل وطأتها، وأضحى عقلاؤها ومفكروها قلقين من المصير الذي ستنتهي إليه إن استمرت في السير في هذا الطريق الخطر، وما تنوّع صور التفكك الأسري وتشظي الروابط الاجتماعية السليمة سوى مثالين واضحين لذلك. وإنْ نحن أضفنا إلى ذلك ما ظهر في العصر الحديث من أمراض جديدة ناتجة أساسًا من العلاقات الاجتماعية الفاسدة كالأيدز وغيره، ما كنا مبعدين.

ولقد حذرت النصوص الشرعية مما يمكن أن ينتاب

الحياة الاجتماعية من مشكلات ومصائب فيما إذا توغل الناس في معاصيهم، ولم يكن بينهم من ينهاهم عنها ويحاول أن يصلح المجتمع. فمن هذا مثلًا ما روي عن النبي الأكرم محمد صلى الله عليه وآله وسلم من قوله: «لا يزال الناس بخير ما أمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر، وتعاونوا على البر، فإذ لم يفعلوا نُزعت عنهم البركات، وسُلّط بعضهم على بعض، وليس لهم ناصر في الأرض ولا معين»(١).

الجواب الرابع:

من السمات المعروفة للذنوب أنها متواشجة متصلة، يقود بعضها إلى بعض، والبادئ السيرَ في أول طريقها لن تمرّ به الأيام والليالي حتى يجد نفسه قد قطع منه شأوًا كبيرًا، وبلغ به الانحراف عن الصواب مدى بعيدًا، ما لم يردع نفسه عن هواها ويحل بينها وبين مبتغاها.

وما في هذه السمة من سر يخفى، بعد أن كانت الذنوب كلها، على اختلافها وتنوعها، ناشئة في أساسها من منشأ واحد، أشار إليه القرآن الكريم في مواضع متعددة، منها قوله:

(١) ميزان الحكمة ٦: ٢٦٥.

- ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾(١).
- ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾(٢).
- ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(٣).
- ﴿وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾(٤).

نعم، إنّ الذنوب كلها ناشئة من استهانة الإنسان بربه، وعدم تعظيم شأنه، مما يقوده إلى فقدان روح التقوى، وتضييع حالة الإحساس بوجود الرقابة الإلهية، ويجرّه هذا إلى المعاصي. وفي هذا يقول أمير المؤمنين علي عليه السلام: «يا أيها الإنسان، ما جرّأك على ذنبك؟ وما غرّك بربك؟ وما أنّسك بهلاكة نفسك؟»(٥).

وإذا استهان الإنسان بربه، فإنه سيستهين بالذنوب كلها، ويسهل عليه الإتيان بها، دونما فارق بين ذنب وآخر، ما دام

---

(١) سورة الانفطار، الآية: ٦.
(٢) سورة النازعات، الآيتان: ٤٠، ٤١.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٧٥.
(٤) سورة البقرة، الآية: ١٩٧.
(٥) ميزان الحكمة ٣: ٤٤٨.

الرادع عنها جميعًا غائبًا عن نفسه؛ لذا لا غرابة في أن يقول الإمام محمد الباقر عليه السلام عن هذه الحالة: «لا مصيبة كاستهانتك بالذنب ورضاك عن الحالة التي أنت عليها»(١).

ولمّا كان كل ذنب مرتبطًا بنوع من البلاء، فإنّ سير الإنسان من ذنب إلى ذنب سيجعله يواجه بلاءً بعد بلاء، ومن المنتظر بعدئذ أن يكون إتيانه بذنوب لا سابق عهد له بها مستلزمًا أن يلقى أنواعًا من البلاء ما كان يعرفها أو يعدّها في غابر أيامه.

الجواب الأخير:

تدل النصوص القرآنية والروائية الشريفة على أنّ نزول البلاء الإلهي بالبشر قد يكون لغايات تربوية، تهدف إلى تنظيف نفوسهم مما علق بها من أوساخ وقذارات معنوية، فتذكّرهم بربهم وتعيدهم إلى صراطه المستقيم. أجل، فالإنسان ما دام غارقًا في النعيم ومتنعمًا بالخيرات قد يظل سادرًا وراء هواه، ناسيًا أمر مولاه، لكن من شأن البلاء أن يجعله يستفيق ويراجع حساباته ويصلح شؤونه، فيعود إلى الطريق ويصلح ما فرط من أمره.

---

(١) ميزان الحكمة ٣: ٤٥٧.

فمن النصوص القرآنية حسبنا أن نلاحظ نهاية الآية المتقدمة من سورة الروم: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾(١). نعم مكمن القضية هنا: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، فالله تعالى يريدهم أن يعودوا إليه وأن يرجعوا إلى ما فيه صلاحهم ونجاتهم. ومن الروايات الشريفة نقف عند مقولة للإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: «... ولكنّ الله يختبر عباده بأنواع الشدائد، ويتعبدهم بأنواع المَجاهد، ويبتليهم بضروب المكاره؛ إخراجًا للتكبر من قلوبهم، وإسكانًا للتذلل في نفوسهم، وليجعل ذلك أبوابًا إلى فضله»(٢)، ومقولة أخرى له عليه السلام: «إذا رأيت الله سبحانه يتابع عليك البلاء فقد أيقظك...»(٣). وفي بدء دعاء أبي حمزة الثمالي للإمام زين العابدين عليه السلام نقرأ: «إلهي لا تؤدبني بعقوبتك»(٤)، فالعقوبة تأديب، وينبغي

(١) سورة الروم، الآية: ٤١.
(٢) ميزان الحكمة ١: ٤٨١.
(٣) نفسه ١: ٤٨٩.
(٤) دعاء أبي حمزة الثمالي للإمام علي بن الحسين السجاد عليه السلام، مفاتيح الجنان، الشيخ عباس القمي، الطبعة القديمة، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، د.ت، ص ١٨٦.

للمؤمن أن يحرص على ألّا يحتاج من ربه إلى تأديب يعيده إليه، بأن يكون ملتزمًا بتقواه ومتمسكًا بطاعته على الدوام.

إنّ وعي الجانب التربوي من البلاء يقودنا إلى بلورة الإجابة الأخيرة التي نتناولها في هذا المقام؛ ذلك أنّ التربية تتطلب زيادة وتنوعًا في الإجراءات التربوية كلما زاد الشخص المراد تربيته من تمرده وإنحرافه، وهكذا لا يكون ثمة مناص من تنويع أنماط الابتلاءات التربوية حينما تصدر منه أنواع من الذنوب والمعاصي لم تبدر منه فيما مضى.

قبسة رضوية: قليل الرزق وقليل العمل

الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام : «من رضي من الله بالقليل من الرزق رضي الله منه بالقليل من العمل»[(١)] .

يربط الإمام الرضا عليه السلام في حديثه هذا بين جانبي الرزق الإلهي والعمل الإنساني ربطًا لافتًا للنظر وجاذبًا للاهتمام، فالإنسان الذي يقنع ويرضى من الله سبحانه برزق قليل سيرضى الله تعالى منه، في المقابل، بالقليل من العمل، فالقليل هنا هو بإزاء القليل هناك. ويوقفنا هذا البيان على المفاهيم الدينية الآتية:

(١) منتهى الآمال في تواريخ النبي والآل، الشيخ عباس القمي، دار المجتبى بالنجف ودار الأميرة ببيروت ٢٠٠٨، ٢: ٣٦٠.

المفهوم الأول: الرزق هو من الله تعالى

هذا المفهوم أكّده القرآن الكريم في مواضع كثيرة منه، كما في قوله تعالى:

- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(١).
- ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾(٢).
- ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾(٣).
- ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾(٤).
- ﴿أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ﴾(٥).

والأحاديث الشريفة أيضًا تأكيدها هذا المفهومَ واضحٌ وبارز، فمن هذا ما في البحار: في الوحي القديم: «يا بن

(١) سورة الروم، الآية: ٣٧.
(٢) سورة النحل، الآية: ٥٦.
(٣) سورة الشورى، الآية: ١٩.
(٤) سورة فاطر، الآية: ٣.
(٥) سورة الملك، الآية: ٢١.

آدم، خلقتك من تراب ثم من نطفة، فلم أعْيَ بخلقك، أوَ يعييني رغيف أسوقه إليك في حينه؟»[١].

وورد أنّ الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام سُئل: لو سُدّ على رجل باب بيت وتُرك فيه، من أين كان يأتيه رزقه؟ فقال عليه السلام: «من حيث يأتيه أجله»[٢]، وعنه عليه السلام أنه قال: «عياله الخلائق، ضَمِنَ أرزاقهم وقدّر أقواتهم»[٣].

إنّ هذا التأكيد المكرر - إضافةً إلى أثره العَقَدي المهم في ترسيخ الإيمان بكون الله تعالى هو الرازق الحقيقي، وغيره ليس سوى سبب سخّره سبحانه لإيصال الحق الإلهي إلى مستحقيه - له تأثيره الواضح في وجدان المؤمن ونفسيته، فليس ثمة ما يوجب القلق الشديد حين يقدم على عمل أو مسعًى ما يرتبط بتحصيل الرزق، كالمعاملات التجارية مثلًا، كما لا داعي أيضًا للتحسر والتألم فيما إذا خسر في تجارة معينة أو تكسّب محدد؛ فالله سبحانه وتعالى هو الذي بيده خزائن الغيب وله كل مفاتيح الرزق، يقبض ويبسط وفق

(١) ميزان الحكمة ٤: ١٠٢.
(٢) نفسه ٤: ١١١.
(٣) نفسه ٤: ١٠٥.

حكمته وما تقتضيه، فعلى المؤمن أن يدعو ربه ويلجأ إليه في حوائجه، بدلًا من القلق والحسرة اللذين لن يجدياه نفعًا، إنْ لم يلحقا به ضررًا.

المفهوم الثاني: الرضا عن الله تعالى

من خصائص الإيمان أنه يجعل المؤمن راضيًا على الدوام عن الله سبحانه وتعالى، فهو راضٍ عن قضائه، وقدره، ورزقه، وأحكامه الشرعية، وكل ما تتمثل فيه هذه الأمور وتتجلى. ولولا هذا لما كان الإيمان حقيقيًا، ولكان المرء أقرب إلى الكفر، فعن الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام أنه قال: «من لم يرضَ بالقضاء دخل الكفر دينه»[١]، وعن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «رأس طاعة الله الرضا بما صنع الله فيما أحب العبد وفيما كره»[٢].

إنّ هذا المفهوم، مفهوم الرضا عن الله سبحانه، يدعو الإنسانَ إليه عقلُه السليم وفطرتُه النظيفة؛ ذلك أنّ الله (جلّ وعلا) قد كتب على نفسه الرحمة، وهو لا يريد لعباده سوى

(١) ميزان الحكمة ٤: ١٤٨.
(٢) نفسه ٤: ١٤٣.

خيرهم وصلاحهم وتكاملهم ليفوزوا بالنعيم الأبدي الخالد، ثم هو أعلم منهم بما يُصلح أحوالهم وأدرى بما فيه خيرهم ونفعهم، فكيف لا يرضى الإنسان عن الله تعالى وعما يريده به وله؟ أليس هذا دليلًا على عدم تحكيمه عقله السليم وما تدعوه إليه فطرته؟

وما أكثر ما قد يقابل المرء في حياته حالات لا يرضى فيها أصحابها عن الأحكام الشرعية إذا وجدوها لا تناسب أمزجتهم أو ثقافاتهم أو قناعاتهم الشخصية! فهناك أزواج لا يعجبهم الحكم الشرعي الذي يقول بعدم وجوب خدمة البيت على الزوجة، فليس من واجبها الشرعي أن تطبخ وتكنس وتغسل...، وإن كان ذلك كله مستحبًا لها وتحصل منه على ثواب عظيم عند ربها. وثمة زوجات يزعجهن، وربما يقضّ مضاجعهن، الحكم الشرعي الذي يبيح تعدد الزوجات، أو الحكم الذي يجعل الطلاق بيد الزوج وحده. وفي مثل هذه الحالات لن تعدم أن تجد من يقول (صراحةً أو في قلبه): أي شرع هذا؟ وما هذه الأحكام؟

ويا ليت هذا القائل رجع - قبل أن يقول ما قال - إلى الآية الشريفة: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا

أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾(١)، إذًا لوجد أنّ القرآن صريح في أنّ مقتضى الإيمان الحقيقي ألّا يرى المؤمن والمؤمنة لنفسيهما اختيارًا أمام الأمر الذي قضاه الله ورسوله، فليس أمامهما - إنْ كانا مؤمنين حقًا - سوى أن يسلّما بالأمر الإلهي تسليمًا.

المفهوم الثالث: الرضا بالرزق القليل

ثمة أناس نراهم إن قُتّر عليهم رزقهم وضاقت عليهم الحياة بما رحبت، صبروا ورتّبوا أحوال معيشتهم بما يتناسب مع شظف العيش وقتامة الحياة، لكنهم في باطنهم غير راضين، بل قد يكونون قلقين متوترين في كل حال. حديث الإمام الرضا عليه السلام لا يقصد هؤلاء، وإنما يعني الأناس الذين يتسمون في داخلهم بالرضا الحقيقي، ذلك الرضا الذي يمنحهم هدوء البال وراحة الوجدان وطمأنينة القلب، فيقودهم هذا كله إلى هناءة العيش. وهو ما تحدث عنه الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام إذ قال: «إنّ أهنأ الناس عيشًا من كان بما قسّم الله له راضيًا»(٢).

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٣٦.
(٢) ميزان الحكمة ٤: ١٤٧.

وليس الرضا بالرزق القليل مرادفًا للكسل عن طلب الرزق والتوقف عن الإبداع والكسب وبذل الجهد والجد في الحياة، فالمسلم يعمل في دنياه كأنه يعيش أبدًا، كما هو مضمون الحديث النبوي المعروف. وإنما المراد أنّ الإنسان منّا إذا بذل كل ما في وسعه وأدى كل ما استطاعه في سبيل تحصيل الرزق، ثم وجد نفسه لم يحصل من الرزق إلا القليل فإنّ عليه آنئذٍ ألّا يُقلق وجدانَه وألّا يلوم نفسه، فتصبح عيشته نكدًا وحياته ضنكًا، بل عليه أن يرضى داخليًا ووجدانيًا بما قسمه الله تعالى له، فهو أعلم به.

وتدل النصوص الشرعية والمأثورات الدينية، في هذا المجال، على أنّ الحصول على مزيد من الرزق قد لا يكون في صالح المرء، وربما يقوده إلى خسارة من حيث لم يحتسب. فمن ذلك ما روي عن أحمد عمر بن أبي شعبة الحلبي والحسين بن يزيد المعروف بالنوفلي أنهما قالا: «دخلنا على الرضا عليه السلام فقلنا له: كنا في سعة في الرزق والعيش، فتغيّر بنا الحال بعض التغيير، فادعُ الله لنا يعده علينا. فقال ما معناه: وماذا تريدان؟ أن تكونا ملكين؟ أيرضيكما أن تكونا مثل طاهر وهرثمة فتكونا خلاف هذا

الأمر. قلنا: لا والله، لا يرضينا أنّ لنا الدنيا وما فيها من ذهب وفضة وأن نكون خلاف ما نحن عليه. فقال عليه السلام: قال تعالى: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾(١).

المفهوم الأخير: الرضا المتبادل

الرضا المذكور في الحديث الشريف ليس رضًا من طرف واحد فقط، بل هو رضا من طرفين، طرف العبد وطرف الرب: «من رضي من الله... رضي الله منه...»، والملاحظ أنّ الرضا البادئ هو رضا العبد، فهو الواقع في جملة الشرط: «من رضي من الله»، ويكون هذا الرضا مستتبعًا لرضا الرب تعالى، الذي يقع في جملة جزاء الشرط: «رضي الله منه...».

أجل، إنّ العبد إذا أراد أن يكون ربه راضيًا عنه، فإنّ عليه أن يملأ قلبه رضًا بربه، فهذه هي العلامة الدالة على تحقق مراده وحصوله على الرضا الإلهي، وقد ورد عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «علامة رضا الله سبحانه عن العبد،

(١) القصة من منتهى الآمال ٢: ٣٦٠، والرجلان المذكوران طاهر وهرثمة كانا من كبار رجال المأمون، والآية الكريمة هي الآية ١٣ من سورة سبأ.

رضاه بما قضى به سبحانه، له وعليه»[١]. وفي التعبير الأخير «له وعليه» إشارة مهمة إلى أنّ ما يراه العبد، بسبب قصور علمه وضيق أفقه المعرفي، قضاءً عليه وضد مصلحته هو ليس كذلك في حقيقته بالتأكيد؛ ذلك أنّ الله تعالى لا يريد سوى مصالح عباده الواقعية، وهم قد يجهلونها، فيحسبون الخير شرًا والنفع ضرًا، مثلما قال سبحانه: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[٢].

لقد ظهرت في كثير من أدعية المعصومين عليهم السلام ومناجياتهم الرغبة في ترسيخ الفكرة التي تطلب من العبد أن يرضى عن ربه، فيكون هذا طريقًا له إلى الوصول إلى رضاه سبحانه عنه، فمن ذلك مثلًا ما في المناجاة الموجزة المعروفة للإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: «إلهي، كفى بي عزًا أن أكون لك عبدًا، وكفى بي فخرًا أن تكون لي ربًا، أنت كما أحب، فاجعلني كما تحب»[٣]. فالعبد راضٍ عن عبوديته، بل يراها عزًا عظيمًا له، وراضٍ عن ربوبية ربه، بل يراها فخرًا

(١) ميزان الحكمة ٤: ١٥٢.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢١٦.
(٣) مفاتيح الجنان، ص ١٣١.

كبيرًا له، ويعلم يقينًا أنّ ربه هو الكمال المطلق وأصل كل الكمالات، فلا كمال إلا وهو منتسب إليه وراجع شأنه إليه؛ لذا فهو سبحانه كما يؤمل العبد ومثلما يحب، فليس له منه سوى الرضا، عسى أن يكون هذا الرضا طريقة ووسيلة إلى أن يوفق الله تعالى عبده لأنْ يكون مثلما يحب، فيحصل بذلك على رضاه المؤمل والمرتجى.

إنّ فكرة الرضا المتبادل هذه لهي ذات أثر عميق في تربية الإنسان التربيةَ الإلهية الصالحة التي تفكّ عنه إسار ارتباطه الوثيق برغباته الذاتية ومشتهياته الشخصية، سواء في تعامله مع ربه أم في تعامله مع الناس الآخرين من حوله. فأما فيما يرتبط بربه سبحانه فالعبد، كما تقدم بيانه سابقًا، مطالب بتعميق رضاه عن ربه في نفسه، وهذا يتطلب أن يكون راضيًا - رضًا حقيقيًا وليس ادعاءً - عن قضاء الله وقدره وكل ما أتت به رسالته وتضمنته شريعته من أحكام شرعية تتناول جوانب الحياة كافةً، لا شك أنّ موقفًا كهذا كفيل بتحرير الإنسان من عبوديته لذاته وانقياده الأعمى لغرائزه وشهواته.

وأما فيما يرتبط بالناس الآخرين والمجتمع، ففكرة الرضا المتبادل تدعو الإنسانَ، كل إنسان، إلى ألّا يكون كل همه

منحصرًا في وصوله هو إلى درجة الرضا عمن حوله من الناس، فلا بد أيضًا من أن يفكر في مدى رضاهم هم عنه، هكذا تتطلب الحياة الاجتماعية السليمة التي تكفل للأفراد جميعًا المعيشة الهانئة السعيدة. من هنا نجد في النصوص الشرعية هذا التأكيد الشديد على التحبب إلى الناس والتودد إليهم، فقد روي أنّ أعرابيًا من بني تميم أتى النبي ﷺ فقال له: أوصني، فكان مما أوصاه: «تحبب إلى الناس يحبوك»(١).

ولا غرابة، والحال هذه، أن نجد المعصومين عليهم السلام يحرصون في وصاياهم على تعليم الناس كيفية التعامل الاجتماعي القويم الذي فيه يحب العبد للآخرين كل ما يحبه لنفسه، ويراعي حقوقهم مثلما يريد منهم أن يراعوا حقوقه، فعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: «عليكم بالورع والاجتهاد، واشهدوا الجنائز، وعودوا المرضى، واحضروا مع قومكم مساجدكم، وأحبوا للناس ما تحبون لأنفسكم، أما يستحيي الرجل منكم أن يعرف جارُه حقه ولا يعرف حقَّ جاره؟»(٢).

---

(١) أصول الكافي ٢: ٣٥٥

(٢) نفسه ٢: ٣٥١.

قبسة جوادية: الموت بالذنوب

الإمام محمد بن علي الجواد عليه السلام: «موت الإنسان بالذنوب أكثر من موته بالأجل...»[1].

تستثير هذه الرواية الشريفة مجموعة من الأسئلة الحائرة الباحثة عن إجابات:

- فما معنى الموت بالذنوب؟
- و«الإنسان» هنا أهو الفرد أم الجماعة المشكِّلة مجتمعًا واحدًا أم النوع البشري كله؟
- والمعروف أنّ الموت صفة لا تقبل التفاضل، فهي إما أن توجد وإما أن لا توجد، فكيف وُصف موت بأنه أكثر من موت؟

(١) سيرة الأئمة الاثني عشر، هاشم الحسني، ط٣، دار القلم، بيروت ١٩٨١، ٢: ٤٦٣.

- وكيف يكون الموت بالذنوب أكثر من الموت بالأجل؟

لمقاربة هذه الأسئلة، انطلاقًا من النص نفسه، نقول: الموت المذكور هنا إما أن يكون بمعناه المتعارف المعهود، أي مفارقة الروح للبدن، وإما أن يكون بمعنى آخر، فإذا كان بالمعنى الأول فعندئذ يكون المراد أنّ الناس الذين يموتون بتقديم موتهم على آجالهم نتيجةً لذنوبهم هم أكثر عددًا من الذين يموتون في آجالهم المقررة. وتقديم الموت على الأجل فيه إشارة إلى لوح المحو والإثبات المذكور في قوله تعالى: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾(١)، وقد روي عن رسول الله ﷺ قوله: «هما كتابان: كتاب سوى أم الكتاب يمحو الله منه ما يشاء ويثبت، وأم الكتاب لا يغيّر منه»(٢)، وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «هما أمران موقوف ومحتوم، فما كان من محتوم أمضاه، وما كان من موقوف فله فيه المشيئة يقضي فيه ما يشاء»(٣).

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٣٩.
(٢) تفسيرنور الثقلين ٣: ٤٥٦.
(٣) نفسه.

وتوضيح ذلك: إنّ لكل إنسان منا أجلين اثنين، فثمة الأجل المحتوم الثابت في اللوح المحفوظ وهو لا يتغير، وثمة أيضًا الأجل الموقوف المذكور في لوح المحو والإثبات، وهذا يُذكر فيه الأجل معلّقًا ومشروطًا من البدء بألّا يأتي الإنسان منا بطاعة تزيد من أجله، وبألّا يقترف معصية من المعاصي التي تؤدي إلى الإنقاص من عمره، فإذا أتى بأيّ من هاتين (الطاعة أو المعصية) فإنّ أجله الموقوف سيؤجل أو سيعجل بحسب ما أتى به؛ لأنه كان أجلًا معلّقًا ومشروطًا من الأصل، وهذه هي عقيدة «البداء» بمعناها الصحيح الذي لا يستلزم نسبة الجهل إلى الله (جلّ وعلا شأنه)؛ ذلك أن كل تغيير يحدث في لوح المحو والإثبات نتيجة أعمال الإنسان معلوم عند الله تعالى منذ الأزل ومثبت في لوحه المحفوظ، وفي هذا قال الإمام الصادق عليه السلام: «إنّ الله يقدّم ما يشاء، ويؤخر ما يشاء، ويمحو ما يشاء، ويثبت ما يشاء، وعنده أم الكتاب، وقال: لكل أمر يريده الله فهو في علمه قبل أن يصنعه، وليس شيء يبدو له إلا وقد كان في علمه، إنّ الله لا يبدو له من جهل»[١].

---

(١) تفسير العياشي، بتعليق السيد هاشم المحلاتي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت ٢٠١٠، ٢: ٢٣٤.

ومن الثابت في الروايات الشريفة الواردة عن النبي ﷺ وآله الطاهرين أنّ هناك من الطاعات ما يطيل عمر الإنسان وأنّ ثمة من المعاصي ما يقصره، فمن ذلك مثلًا قول النبي ﷺ: «إنّ الرجل ليصل رحمه وقد بقي من عمره ثلاث سنين فيصيّرها الله عز وجل ثلاثين سنة، ويقطعها وقد بقي من عمره ثلاثون سنة فيصيّرها الله ثلاث سنين»(١)، وعن الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام في حديث طويل: «والذنوب التي تعجّل الفناء: قطيعة الرحم، واليمين الفاجرة، والأقوال الكاذبة، والزنا، وسد طرق المسلمين، وادّعاء الإمامة بغير حق»(٢).

وقد حملت لنا المرويات قصصًا متعددة مؤثرة في مجال علاقة الذنب بتقصير العمر، منها هذه القصة التي وردت في «الكافي» عن أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السلام أنه قال للإمام: إنّ إخوتي وبني عمي قد ضيّقوا عليّ الدار وألجؤوني منها إلى بيت، ولو تكلمتُ أخذت ما في أيديهم.

فقال الإمام عليه السلام: اصبر، فإنّ الله سيجعل لك فرجًا.

---

(١) سفينة البحار ١: ٥١٤.

(٢) معاني الأخبار، الشيخ الصدوق، تصحيح علي أكبر الغفاري، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت ١٩٩٠، ص ٢٧١.

قال: فانصرفت، ووقع الوباء في سنة إحدى وثلاثين ومائة، فماتوا والله كلهم، فما بقي منهم أحد. قال: فخرجت فلمّا دخلت عليه قال عليه السلام:

ما حال أهل بيتك؟

قال: قلت له: قد ماتوا والله كلهم، فما بقي منهم أحد.

فقال عليه السلام: هو بما صنعوا بك، وبعقوقهم إياك وقطع رحمهم بُتروا، أتحب أنهم بقوا وأنهم ضيقوا عليك؟

قال: قلت: إي والله(١).

هذا كله إذا كان الموت في حديث الإمام الجواد عليه السلام بمعناه المتعارف، أي مفارقة الروح للبدن. أما إذا كان بمعنى آخر، أي بمعنى الموت النفسي أو الوجداني أو الداخلي الذي يحدث نتيجةً لاقتراف الذنب، فعندئذ يحتمل المعنى المراد من الرواية احتمالات عدة:

أ - الناس الذين يموتون بسبب ذنوبهم موتًا داخليًا عددهم أكثر من الذين يموتون في الخارج بالموت المتعارف.

---

(١) عقاب الذنوب، السيد هاشم الرسولي المحلاتي، ترجمة محمد علي آذرشب، منظمة الإعلام الإسلامي، طهران ١٩٨٦، ص ٩٣، نقلًا عن الكافي.

ب - الإنسان الواحد، بما هو فرد، يموت داخليًا بالذنب أكثر من الموت المتعارف؛ لأنّ الموت المتعارف لا يأتيه إلا مرة واحدة، في حين أنّ الموت بالذنب قد يأتيه كل يوم، بل مرات في اليوم الواحد.

ج - الموت بسبب الذنب موتًا داخليًا هو أشد أثرًا وأعمق نتيجةً من الموت المتعارف. وهذه الحقيقة راجعة في الحقيقة إلى كون الموت بالذنوب قتلًا وليس موتًا عاديًا يشبه أغلب حالات الموت الواقع في الخارج. نعم، إنه لقتلٌ. وهذه الحقيقة يمكن إدراكها من زوايا عدة:

الزاوية الأولى: قتل الإنسانية

حين يذنب الإنسان يَقتل في داخله - عرف بهذا أم جهل - أهم مائز يميزه بوصفه إنسانًا عن سائر الموجودات من حوله. إنه يقتل عقلَه، هذه الجوهرة الإلهية والهبة الربانية الرائعة، فقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من قارف ذنبًا فارقه عقل لا يرجع إليه أبدًا»(١).

وليس هذا الحديث النبوي بمستغرب؛ فالعقل يدعو

(١) ميزان الحكمة ٣: ٤٤٩.

صاحبَه إلى طاعة الله عز وجل؛ بغيةَ الفوز بنعيمه الخالد الذي أعدّه لعباده المتقين (طريق الرجاء)، أو لأجل النجاة من ناره وعذابه الشديد الذي هو مصير التاركين نهجَه والسالكين غير سبيل هداه (طريق الخوف)، أو رغبةً في أداء بعض حق الشكر له سبحانه في مقابل كل نعمه التي لا ندرك حتى عدّها (طريق الشكر). أجل، هكذا هو نداء العقل الإنساني، لكن هذا الإنسان قد يتغافل عن هذا النداء أو يتناساه، فيسير متّبعًا هواه ومطيعًا شيطانه نحو الذنب، وكأنّ الذنب شراب مسكر قد جعله يفقد عقله، بل هو أشد أثرًا، فعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «احذر سكر الخطيئة، فإنّ للخطيئة سكرًا كسكر الشراب، بل هي أشد سكرًا منه»[(١)].

وليس قتل الإنسانية، بارتكاب الذنوب، منحصرًا في قتل العقل وحده، فثمة أيضًا قتل آخر لا يقل خطورة وأهمية، ألا وهو قتل القلب الإنساني، موضع الإيمان والمشاعر الإنسانية النبيلة، فالروايات الشريفة كرّرت الإشارة إلى أنّ الذنب له أثر تكويني سيء مباشر في قلب الإنسان، ويأخذ هذا الأثر بالتوسع كلما زاد التوغل في أوحال المعاصي والذنوب حتى

(١) ميزان الحكمة ٣: ٤٤٨.

تموت الإنسانية في هذا القلب، فلا يفلح أبدًا، كما في الحديث المروي عن الإمام الصادق عليه السلام: «إذا أذنب الرجل خرج في قلبه نكتة سوداء، فإن تاب انمحت، وإن زاد زادت حتى تغلب على قلبه فلا يفلح بعدها أبدًا»(١). وجاء في حديث آخر مروي عنه عليه السلام أيضًا: «كان أبي يقول: ما من شيء أفسد للقلب من خطيئته، إنّ القلب ليواقع الخطيئة فلا تزال به حتى تغلب عليه، فيصير أعلاه أسفله»(٢).

هكذا هو الموت بالذنوب، قاتل للإنسانية. لكن الموت العادي بالأجل هو تكميل للإنسانية وتتويج لها، إذ هو طريق للإنسان إلى النعيم الأبدي وجنان الخلد؛ لذا نجد الروايات الشريفة تصفه بمثل هذين الوصفين:

- الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: «الموت غنيمة»(٣).
- الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: «في الموت راحة السعداء»(٤).

(١) ميزان الحكمة ٣: ٤٦٤
(٢) نفسه.
(٣) نفسه ٩: ٢٤٠.
(٤) نفسه.

وشتان الفارق بين موتين: أحدهما يقتل إنسانية الإنسان، فيحيله حجرًا من جامد الصخر جلمدًا، أو بهيمة همّها علفها، والآخر يكرّم الإنسانية ويوصلها إلى الخلود في النعيم الأبدي.

الزاوية الثانية: قتل هدف الخلقة

لا ريب في أنّ خلق الله (سبحانه وتعالى) للإنسان لم يكن عبثًا وجزافًا، فهو (جلّ شأنه) حكيم، والحكيم لا تصدر منه الأفعال بلا غاية أو هدف. ولا ريب أيضًا في أنّ الهدف الإلهي من الخلقة ليس راجعًا إليه سبحانه؛ فهو الكمال المطلق المنزه عن أي نقص، وليس يمكن تصور أي نقص في ذاته المقدسة حتى يقال إنه يريد سدّ ذلك النقص بفعل من الأفعال. بل الهدف من الخلقة راجع إلى الإنسان نفسه، أي إلى المخلوق، وهذا ما يعنيه الفلاسفة الإلهيون حين يعبّرون بأنّ الغاية هنا هي غاية للفعل لا للفاعل. هذا الهدف هو «وصول الإنسان إلى الكمال الإنساني المطلوب الذي يتحقق في ظل عبادة الله وطاعته»[1]، وبعبارة أخرى: «يمكن القول

(١) العقيدة الإسلامية على ضوء مدرسة أهل البيت، الشيخ جعفر السبحاني، ترجمة الشيخ جعفر الهادي، دار التعارف، بيروت، دون تاريخ، ص ١٠٠.

إنّ الإنسان خُلق ليُبتلى، ليؤدي العبادة الاختيارية، ليصل إلى رحمة الله الأبدية الخالدة»(١). قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾(٢).

وإذا كان ذلك كذلك، فلا مراء ولا شبهة في أنّ السير في طريق الذنوب والمعاصي هو سير في الاتجاه المعاكس للطريق الذي خُلق الإنسان للسير فيه، أي أنه قتلٌ للهدف من الخلقة، وتنكّر صريح للعبودية الحقة لله تعالى. إنّ الإنسان العاصي بلغت به السماجة وسوء الاختيار مبلغًا يجعله يهدم، بسبب معاصيه، كل بناء الطاعات الذي سعى لتشييده بعباداته وأعماله الصالحة. وفي هذا المعنى ورد الحديث عن الصادقين عليهما السلام: «جدّوا واجتهدوا، وإن لم تعملوا فلا تعصوا، فإنّ من يبني ولا يهدم يرتفع بناؤه وإن كان يسيرًا، وإنّ من يبني ويهدم يوشك أن لا يرتفع بناؤه»(٣).

والإنسان الذي يعرف ربه، ويعرف الهدف الذي خلقه لأجله، يتجنب الذنوب والمعاصي، فلا يقربها حتى لو أمن

(١) معارف القرآن، الشيخ محمد تقي المصباح اليزدي، ترجمة الشيخ محمد عبد المنعم الخاقاني، ط٣، الدار الإسلامية، بيروت ١٩٩٩، ١: ٢٣٩.
(٢) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.
(٣) ميزان الحكمة ٣: ٤٥٠.

العقاب الإلهي، مثلما قال الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: «لو لم يتوعد الله على معصيته، لكان يجب أن لا يُعصى شكرًا لنعمه»(١).

لقد نصّ القرآن الكريم على منافاة طريق الذنوب وطاعة الشيطان للطريق الذي خُلق الإنسان لأجله، وهو طريق عبادة الله، في آيات متعددة، منها قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾(٢).

وإذا ولّينا وجوهنا، بعد هذا، شطر الموت العادي بالأجل، وجدناه يختلف عن الموت بالذنوب من هذه الناحية كل الاختلاف، فهو لا يتعارض مع الهدف من الخلقة، بل على العكس تمامًا، إنه يقع ضمن سلسلة الإجراءات المؤدية إلى تحقيقه، فهو الكفيل بنقل الإنسان من دار الابتلاء والمعاناة إلى دار السرور والراحة الأبدية، حين يحقق التكامل المطلوب منه عن طريق عبادة الله جلّ وعلا.

يروى أنه لمّا اشتد الأمر بالحسين بن علي بن أبي

(١) ميزان الحكمة ٣: ٤٤٩.
(٢) سورة يس، الآية: ٦٠- ٦١.

طالب عليه السلام نظر إليه من كان معه فإذا هو بخلافهم؛ لأنهم كلما اشتد الأمر تغيرت ألوانهم وارتعدت فرائصهم ووجلت قلوبهم، وكان الحسين (صلوات الله عليه) وبعض من معه من خصائصه تشرق ألوانهم، وتهدأ جوارحهم، وتسكن نفوسهم. فقال بعضهم لبعض: انظروا لا يبالي بالموت! فقال لهم الحسين عليه السلام: «صبرًا الكرام، فما الموت إلا قنطرة تعبر بكم عن البؤس والضراء إلى الجنان الواسعة والنعيم الدائم، فأيكم يكره أن ينتقل من سجن إلى قصر؟»[١].

وقد «قيل للإمام محمد بن علي الجواد عليهما السلام: ما بال هؤلاء المسلمين يكرهون الموت؟ فقال عليه السلام: لأنهم جهلوه فكرهوه، ولو عرفوه وكانوا من أولياء الله عز وجل لأحبوه ولعلموا أنّ الآخرة خير لهم من الدنيا. ثم قال عليه السلام: يا أبا عبد الله، ما بال الصبي والمجنون يمتنع من الدواء المنقّي لبدنه والنافي للألم عنه؟

قال: لجهلهم بنفع الدواء.

قال عليه السلام: والذي بعث محمدًا بالحق نبيًا، إنّ من استعد للموت حق الاستعداد فهو أنفع له من هذا الدواء لهذا

(١) ميزان الحكمة ٩: ٢٣٤- ٢٣٥.

المتعالج، أما إنهم لو عرفوا ما يؤدي إليه الموت من النعيم لاستدعوه وأحبوه أشد ما يستدعي العاقل الحازم الدواء لدفع الآفات واجتلاب السلامات»[١].

الزاوية الثالثة: قتل الزمن

سخّر الله سبحانه - لكل واحد منا، بغية الوصول إلى الهدف من خلقته - زمنًا محددًا لا يستطيع أن يتعداه، وهو المعبّر عنه بالعمر. فينبغي لكل عاقل منا أن يغتنم هذا العمر ويستفيد من ذاك الزمن؛ لأجل المزيد من الارتقاء في مراقي التكامل البشري والوصول إلى مستويات أرقى من الرضا الرباني، فعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «إنّ العمر محدود، لن يتجاوز أحد ما قدّر له، فبادروا قبل نفاد الأجل»[٢]، وعن الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام قوله: «إنّ الليل والنهار يعملان فيك فاعمل فيهما، ويأخذان منك فخذ منهما»[٣]. هكذا يحيي الإنسان زمنه ويحافظ عليه ويغنم وجوده.

لكن الإنسان الذي يقضي زمنه في المعاصي والذنوب

---

(١) ميزان الحكمة ٩: ٢٣٦.
(٢) نفسه ٦: ٥٣٩.
(٣) نفسه.

إنما هو في الواقع - انتبه لذلك أو غفل عنه - يقتل زمنه، ويضيّع عمره، وليس له بعد هذا سوى الشقاء، واجترار الحسرات حيث لا تجدي. قال الإمام علي عليه السلام: «فيا لها حسرةً على كل ذي غفلة، أن يكون عمره عليه حجة، وأن تؤديه أيامه إلى الشقوة»(١).

وإذا توجهنا، بعد هذا، تلقاء الموت المتعارف، وجدنا شأنه مختلفًا، فهو لا يقتل الزمن ولا ينهيه، بل يصل الزمن القصير المؤقت لهذه الحياة الدنيا بالزمن الأبدي الخالد للحياة الأخرى الدائمة، وبتعبير الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام: «الموت باب الآخرة»(٢).

الزاوية الأخيرة: قتل المجتمع

الموت بالذنوب قد لا يقتصر وباله وسوء أثره على الفرد المرتكب للمعصية، بل قد يسري إلى مجتمعه والأفراد المتأثرين به؛ ذلك أنّ هذا الفرد الذي أتى بمعصيةٍ ما قد يشجع غيره - من حيث لا يشعر ربما - عليها، بأن يكون قدوة

(١) ميزان الحكمة ٦: ٥٤٤.
(٢) نفسه ٩: ٢٢٥.

له فيها، ومسقطًا لهيبتها في نظره. من هنا وجدنا كل هذا التحذير الشديد في الروايات الشريفة من التجاهر بالمعاصي، فمن ذلك مثلًا:

- علي عليه السلام: «إياك والمجاهرة بالفجور، فإنها من أشد المآثم»(١).
- علي عليه السلام أيضًا: «مجاهرة الله سبحانه بالمعاصي تعجّل النقم»(٢).
- الرضا عليه السلام: «المذيع بالسيئة مخذول، والمستتر بالسيئة مغفور له»(٣).

وغني عن البيان أنّ الموت المتعارف بالأجل يختلف عن ذلك، فلكل إنسان منا أجله المحدود، وليس لأجل أحدنا ارتباط بآجال الآخرين: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾(٤)، وعن الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام أنه قال: «لكل حيّ موت»(٥).

(١) نفسه ٣: ٤٥١.
(٢) ميزان الحكمة ٣: ٤٥١.
(٣) نفسه.
(٤) سورة المنافقون، الآية: ١١.
(٥) ميزان الحكمة ٩: ٢٢٥.

قبسة هاديّة أو هادويّة[1]: خير من الخير

الإمام علي الهادي عليه السلام: «خيرٌ من الخير فاعله، وأجمل من الجميل قائله، وأرجح من العلم حامله، وشرٌ من الشر جالبه، وأَهْوَلُ من الهول راكبه»[2].

يشتمل كلام الإمام عليه السلام على قائمتين متوازيتين: فالقائمة الأولى تضم مجموعة من المفاهيم والقيم النظرية المجردة: الخير والجميل والعلم والشر والهول، والقائمة الأخرى تتناول الذوات الفاعلة التي تتجلى هذه المفاهيم فيها

(١) فائدة من علم الصرف: إذا نسبنا إلى اسم منقوص تقع فيه الياء حرفًا رابعًا (الهادي والقاضي والداعي...) جاز لنا حذف تلك الياء (وهو الأرجح)، كما جاز لنا أيضًا قلبها واوًا. انظر «شذا العرف في فن الصرف» للشيخ أحمد الحملاوي ص ١٣٣.

(٢) أئمتنا، علي محمد علي دخيّل، ط٦، دار مكتبة الإمام الرضا ودار المرتضى، بيروت ١٩٨٢، ٢: ٢٢٩.

وتتصف هي بها: فاعل الخير وقائل الجميل وحامل العلم وجالب الشر وراكب الهول. وقد فضّل الإمام عليه السلام أصحاب القائمة الأخرى على المفاهيم والقيم المذكورة في القائمة الأولى، سواء في هذا ما كان إيجابيًا وما كان سلبيًا، بلا فارق. فما الذي أراده عليه السلام من هذا؟ وما مداليل كلامه؟

يمكن فهم ذلك في الآفاق المتنوعة الآتية:

الأفق الأول:

المهم في المنظور الإسلامي ليس وجود المفاهيم والقيم والمثل في صورتها النظرية المجردة، بل المهم أن تجد طريقها نحو التطبيق العملي إن كانت إيجابية ومفيدة للإنسانية والحياة، وأن يحال بينها وبين التحقق خارجًا إن كانت مضرة ومؤذية؛ ذلك أنّ المهم هو تحقق نفع الناس ومنع تحقق ما فيه ضررهم. قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾(١)، وروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «اطلبوا الخير دهرَكم، واهربوا من النار

(١) سورة الرعد، الآية: ١٧.

جهدَكم، فإنّ الجنة لا ينام طالبها، وإنّ النار لا ينام هاربها»(١).

إنّ تفضيل الإمام الهادي عليه السلام أصحاب القائمة الأخيرة ليدل دلالة واضحة على مدى أهمية أن يعمل الإنسان بالمفاهيم التي يعلم حُسنها، وأن يتجنب عمليًا تلك التي يعلم قبحها. قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾(٢)، وقال سبحانه: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾(٣)، وعن الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام أنه قال: «العمل رفيق الموقن»(٤). بل إنّ الدين يريدنا، في هذا المقام، ألّا نقلل من عاقبة أي عمل خيّر وإنْ بدا لنا في حد نفسه قليلًا أو صغيرًا، فعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «اعملوا قليلًا تنعّموا كثيرًا»(٥).

وعلى هذا، ليس مقبولًا من المؤمن أن يزيد كلامه على فعله، فيكون من أولئك الذين يجيدون رفع الشعارات البراقة

---

(١) ميزان الحكمة ٣: ٢٠١.
(٢) سورة التوبة، الآية: ١٠٥.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٣٢.
(٤) ميزان الحكمة ٧: ٨.
(٥) نفسه.

وإلقاء الخطب الطنانة، دون أن يكون لكلامهم من وجود حقيقي أو انعكاس واقعي في الخارج. عن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في هذا الصدد: «زيادة الفعل على القول أحسن فضيلة، ونقص الفعل عن القول أقبح رذيلة»[١].

وليس مرضيًا من المؤمن أن يكون كل همه وغاية وُكده منصبّين على تحصيل المعارف النظرية والاستزادة من الثقافة الفكرية إلى درجة الترف، دونما عناية حقيقية بأساليب ترجمة هذه المعارف إلى تطبيقات وممارسات تفيد المجتمع والناس والحياة. مثل هذه المعلومات لا تكون ذات فائدة حقيقية لصاحبها، بل قد تصبح نقمة ووبالًا عليه، بناءً على ما في الحديث النبوي الشريف: «كل علم وبال على صاحبه إلا من عمل به»[٢]، وحديث الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: «علم بلا عمل حجة الله على العبد»[٣].

وقد تصل الحالة ببعض الناس إلى درجة أنّ شدة اهتمامهم بالمعارف النظرية وحدها قد تجعلهم يتأففون متضجرين من أية موعظة أو نصيحة يوجهها الآخرون إليهم،

(١) ميزان الحكمة ٧: ١٨.
(٢) نفسه ٦: ٥٠٨.
(٣) نفسه.

داعين إياهم إلى التطبيق والممارسة لما يعلمونه، فالمهم عندهم أنهم يعلمون، وليس مهمًا إطلاقًا أن ينتقلوا إلى مجال العمل؛ لذا لا يجد ناصحهم عندهم إلا الإعراض والنفور، وكأنهم تناسوا ما في الروايات الشريفة من دعوات مؤكدة إلى الاهتمام بتلقي النصيحة واحترام الناصح والأخذ بنصحه، فمن ذلك مثلًا ما عن أمير المؤمنين علي عليه السلام: «مناصحك مشفق عليك، محسن إليك، ناظر في عواقبك، مستدرك فوارطك، ففي طاعته رشادك، وفي مخالفته فسادك»(١)، وعنه عليه السلام أيضًا: «اسمعوا النصيحة ممن أهداها إليكم، واعقلوها على أنفسكم»(٢).

الأفق الثاني:

التطبيق العملي الذي تناوله الأفق الأول لا بد أن يكون تكاملًا متوازيًا في كل جوانب الحياة، وليس في جانب دون غيره. فالإمام علي الهادي عليه السلام تحدث هنا عن أبعاد متنوعة وجوانب مختلفة: تحدث عن السلوك العملي (فاعله)، وعن القول (قائله)، وعن الفكر (العلم)، وعن الوجدان والنفس

(١) ميزان الحكمة ١٠: ٥٧.
(٢) نفسه ١٠: ٦٠.

(الشر والهول)، وهذا التنويع يشير بوضوح إلى ضرورة أن يكون التكامل العملي شاملًا للجوانب كلها، لا أن يكون الفرد منا ممن يؤمن عمليًا ببعض الكتاب ويكفر ببعض، فيختار ما يسهل عليه الالتزام به، ويترك ما يجده متنافيًا مع هواه أو رغبته الذاتية أو مصلحة دنيوية ما.

لقد ربطت النصوص الشرعية بين هذا التنويع للتكامل الإنساني في المجالات المختلفة من جهة وبين العبودية الحقة لله تعالى من جهة أخرى، فمن هذا ما ورد في حديث المعراج: «يا أحمد، هل تدري متى يكون العبد عابدًا؟ قال: لا يا رب، قال: إذا اجتمع فيه سبع خصال: ورع يحجزه عن المحارم، وصمت يكفّه عما لا يعنيه، وخوف يزداد كل يوم من بكائه، وحياء يستحيي مني في الخلاء، وأكل ما لا بد منه، ويبغض الدنيا لبغضي لها، ويحب الأخيار لحبي إياهم»(١).

نعم، إنّ لطاعة الله (عز وجل) سبلًا مختلفة ومجالات متنوعة، وقد سهّلها لنا لنسير فيها بأجمعها، لا أن ننتقي منها، فنأخذ وندع. عن أمير المؤمنين علي عليه السلام: «إنكم بعينِ من حرّم عليكم المعصية، وسهّل لكم سبل الطاعة»(٢).

(١) ميزان الحكمة ٦: ١٢. (٢) نفسه ٣: ٢٠٢.

الأفق الثالث:

ما من مرية في أنّ من أبعاد تفضيل الإمام عليه السلام القائمة الأخيرة على الأولى كونَ القائمة الأخيرة مشيرة بالتأكيد إلى قضية التأثير في الآخرين، ففاعل الخير مثلًا حين يمارس إتيانه بالخير عمليًا هو، في الواقع، يستثير دوافع الخير في نفوس الآخرين، ويرغّبهم في فعله مثلما يفعل هو، وهكذا يقال عن قائل الجميل، وعن حامل العلم. هذا في الجانب الإيجابي المثبت، وليست الحالة في الجانب الآخر بمختلفة؛ لأنّ من يفعل الشر أمام الآخرين يحرّك نوازع الشر فيهم ويدعوهم لفعله.

وقد أعطت الروايات الشريفة التأثير في الآخرين اهتمامًا بالغًا، في الجانبين المثبت الإيجابي والمنفي السلبي معًا: فأما في الجانب الأول فنجد مثلًا الحديث المشهور عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم: «الدال على الخير كفاعله»[1]، والدلالة على الخير مثلما تتحقق بالدلالة باللسان، فكذلك يمكنها أيضًا أن تتحقق بالفعل والممارسة للخير.

---

(١) ميزان الحكمة ٣: ٢٢١.

وأما في الجانب الآخر فيقابلنا مثلًا حديث الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام : «جماع الشر في مقاربة قرين السوء»، فأصدقاء السوء يمكنهم، بكل يسر وسهولة، أن ينقلوا صفاتهم السيئة وخصالهم الشريرة إلى من يصادقهم، مهما كان احتياطه منهم وتوقّيه وحذره من اكتساب طباعهم، فالطباع تعدي، والنفوس تؤثر وتتأثر.

إنّ قضية التأثير في الآخرين لجديرة بأن توقظ في دواخلنا إحساسنا بمسؤولياتنا من هذه الناحية، وهي ناحية ذات اتجاهين مزدوجين: فثمة اتجاه مَن نتأثر نحن وأهلونا ومجتمعنا به، فعلينا أن نكون دقيقين حذرين من أن ننجرّ إلى التأثر بأفراد أو اتجاهات أو أفكار لا يحسن التأثّر بها، وقد روي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: «من أصغى إلى ناطق فقد عبده، فإن كان الناطق عن الله فقد عبد الله، وإن كان الناطق عن إبليس فقد عبد إبليس»[١].

وثمة أيضًا اتجاه مَن نؤثّر نحن فيه، من أبنائنا وبناتنا وأهلينا مثلًا، فهذا أيضًا اتجاه مسؤوليةٍ لا تقلّ بحال عن مسؤولية الاتجاه الأول؛ إذ أنّ من لوازم مسؤوليتنا وسماتها

(١) ميزان الحكمة ٦: ١٩.

الأكيدة أنْ نحرص على جعل مَن يقتدي بنا ويتأثر بأعمالنا يتجه في الاتجاه الذي يرضي ربه، ويصل به إلى منازل الأبرار التي ذكرها رسول الله ﷺ في الحديث المروي عنه: «كما لا يجتنى من الشوك العنب، كذلك لا ينزل الفجّار منازل الأبرار، فاسلكوا أي طريق شئتم، فأي طريق سلكتم وردتم على أهله»(١).

الأفق الأخير:

إنّ امتداح الإمام فاعلَ الخير وقائل الجميل وحامل العلم يجعل هؤلاء الناس المذكورين يتشجعون أكثر لمواصلة الأعمال الجميلة المثمرة التي يؤدونها ويفيدون بها مجتمعاتهم وأنفسهم. وهذا منحى ديني في التعامل مع دواعي الخير التي قد تكون أحيانًا كامنة في النفوس البشرية من دون أن يحاول أصحابها إبرازها لخارج ذواتهم، أو قد يبرزونها ولكن ليس بالقدر أو النحو المطلوبين، كل ذلك إما لعدم استشعارهم أهمية هذه الدواعي التي يحملونها في نفوسهم، وإما لتهيّبهم ردة فعل الناس من حولهم، وعدم توقعهم منهم القبول والاستحسان.

---

(١) ميزان الحكمة ٧: ١٠.

حقًا أنّ فاعل الخير لا ينبغي له أن ينتظر من مجتمعه جزاءً ولا شكورًا، بل عليه أن يعمل لوجه الله تبارك وتعالى، لكن من الحق أيضًا أنّ على المجتمع أن يتقبل مبادرات أبنائه وبناته بقبول حسن، فيشيد بها ويمتدحها في أقل تقدير؛ كيما يجعلهم يشعرون بأهمية ما يعملون دون أن يخشوا من الناس رفضًا أو ترددًا. ورد أنّ رجلًا قال للنبي صلى الله عليه وآله وسلم: «أحب أن أكون خير الناس، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: خير الناس من ينفع الناس، فكن نافعًا لهم»[1]. نعم، هكذا يبرز معلّم البشرية ومربّيها صلى الله عليه وآله وسلم أهمية نفع الناس، ويشيد بهذا النافع حتى يجعله خير الناس، قبل أن يدعو المخاطب إلى أن يسير في هذا الطريق.

وفي مقابل هذا، يؤدي ذم الإمام الهادي عليه السلام فاعلَ الشر، إلى درجة جعله شرًا من الشر نفسه، إلى إيقاظه من غفلته إن كان غافلًا، وردعه عن غيّه إن كان متعمدًا متقصدًا، فهكذا يحول الإسلام دون انتشار الشرور والمفاسد في المجتمعات البشرية.

إنّ إنسانًا عظيمًا كالإمام علي بن أبي طالب عليه السلام حين

---

(١) ميزان الحكمة ٣: ٢١٤.

يقول: «شر الناس من يظلم الناس»(١)، فإنه بقوله هذا يميت دواعي الظلم الموجودة في داخل أي إنسان، أو يوهنها إلى درجة كبيرة، وهذا يسهم إسهامًا مباشرًا في القضاء على الظلم الاجتماعي بسلب جذوره وانتزاع أصوله من النفس.

وهكذا، يريد الإسلام من المسلم أن يكون إنسانًا مسؤولًا بإزاء ما قد يراه في مجتمعه من شرور بشرية ومنكرات اجتماعية، فلا بد له من إظهار كراهته لذلك، بقوله وفعله، وهذا واجب عليه وجوبًا عينيًا بناءً على ما ورد في منهاج الصالحين: «يجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع كون المعروف واجبًا والمنكر حرامًا، ووجوبه عندئذ كفائي يسقط بقيام البعض به، نعم وجوب إظهار الكراهة قولًا أو فعلًا من ترك الواجب أو فعل الحرام عينيّ، لا يسقط بفعل البعض، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «أمرنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن نلقى أهل المعاصي بوجوه مكفهرة»(٢).

---

(١) ميزان الحكمة ٧: ١٠.

(٢) منهاج الصالحين، السيد علي السيستاني، نشر مكتب سماحته، قم ١٤٣٠هـ، ١: ٣٨٥- ٣٨٦، المسألة ١٢٧٠.

قبسة عسكرية: الوعظ سرًا وعلانيةً

الإمام الحسن بن علي العسكري عليه السلام : «من وعظ أخاه سرًا فقد زانه، ومن وعظه علانيةً فقد شانه»[(١)] .

ليس يخفى على من يراجع النصوص الشرعية الإسلامية ما فيها من اهتمام واضح ودعوة مؤكدة إلى إشاعة الوعظ في المجتمع المسلم، و«الوعظ والعِظة والعَظة والموعظة: النصح والتذكير بالعواقب؛ قال ابن سيدة: هو تذكيرك للإنسان بما يليّن قلبه من ثواب وعقاب»[(٢)] . كيف لا؟ والقرآن الكريم يصف نفسه بأنه موعظة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[(٣)]، ويريد من

(١) تحف العقول، ص ٣٦٤.
(٢) لسان العرب، مادة «وعظ».
(٣) سورة يونس، الآية: ٥٧.

الرسول محمد ﷺ أن يستعمل الموعظة الحسنة في دعوته: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾[١]، ورسول الله ﷺ يعدّ التمسك بالموعظة والنصيحة في كل حال من أبرز سمات الأخوّة التي تجمع بين المؤمنين، فقد روي عنه ﷺ قوله: «المؤمن أخو المؤمن، لا يدع نصيحته على كل حال»[٢].

إنّ هذا الاهتمام الديني المؤكد بالوعظ والموعظة لينطلق من المنطلقات الآتية:

١ - نظرة الإسلام الواقعية الموضوعية للإنسان، فهي تنظر إليه بوصفه مخلوقًا معرّضًا للسير في طريق المعصية والانحراف في أية مرحلة من مراحل حياته، وفي أية نقطة من نقاط مسيرته الطويلة الكادحة في هذه الدنيا؛ نظرًا لضغط غرائزه ودعوات نفسه الأمارة بالسوء وتسويل الشيطان وتزيينه. لكن المهم بعد السقوط في المعصية أن تتوافر الأسباب التي من شأنها انتشال هذا الإنسان من وهدته وإنقاذه من سقطته، وقد تكون

(١) سورة النحل، الآية: ١٢٥.
(٢) ميزان الحكمة ١: ٣٣٣.

الأسباب التي في مستطاع هذا الإنسان أن يوفرها بنفسه غير كافية؛ لذا لا محيص عن الاستعانة بالأسباب الخارجة عن ذاته، وأهمها الموعظة. إنّ إنقاذه سيكون متاحًا وميسورًا متى توافرت عنده موعظة مؤثرة، كهذه المروية عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«عن أنس قال: خطبنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على ناقته الجدعاء وليست بالعضباء فقال:

أيها الناس، كأنّ الموت فيها على غيرنا كُتب، وكأنّ الحق فيها على غيرنا وجب، وكأنّ الذي يشيع من الأموات سفر عما قليل إلينا راجعون، بيوتهم أجداثهم، ونأكل تراثهم، كأنّا مخلدون بعدهم، قد أمنّا كل جائحة، ونسينا كل موعظة، طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس، وأنفق من مال اكتسبه من حلال من غير معصية، ورحم أهل الذل والمسكنة، وخالط أهل الفقه والحكمة، واتبع السنة ولم يعدها إلى بدعة، فأنفق الفضل من ماله، وأمسك الفضل من قوله، طوبى لمن حسنت سريرته وطهرت خليقته»[١].

(١) ميزان الحكمة ١٠: ٥٦٠

أو حين تبلغه موعظة كموعظة أمير المؤمنين عليه السلام الموجزة حين قيل له: عظنا وأوجز، فقال عليه السلام: «الدنيا حلالها حساب، وحرامها عقاب، وأنّى لكم بالرّوح ولمّا تأسّوا بسنة نبيكم؟ تطلبون ما يطغيكم، ولا ترضون ما يكفيكم»(١).

٢ - انحراف الإنسان عن طريق الحق إنما هو ناتج من نسيانه وغفلته، نسيانه للميثاق الإلهي المأخوذ عليه قبل مجيئه لهذه الحياة الدنيوية المادية: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾(٢)، وغفلته عن ربه وعن الغاية العبادية التي خلقه لأجلها، فتراه يخبط خبط عشواء يمينًا وشمالًا، لا يلوي على شيء، ولا يهتدي إلى مستقرّ.

وإذ تبيّن أنّ ذاك كذلك، فغاية ما يحتاج إليه هذا الإنسان هو التذكير الذي ينتشله من وادي النسيان ويوقظه من سبات الغفلة، ويعيده إلى فطرته السليمة؛

---

(١) ميزان الحكمة ١٠: ٥٤٠.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٧٢.

لذا نجد القرآن الكريم يحصر وظيفة النبي صلى الله عليه وآله وسلم حصرًا في التذكير: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ۝٢٢﴾[١].

ومن الواضح، بعد هذا، أنّ للموعظة أثرًا عظيمًا في التذكير، بل هي الوسيلة الأهم والأنجع لدفع الغفلة وإحياء القلوب، فعن الإمام علي عليه السلام أنه قال: «بالمواعظ تنجلي الغفلة»[٢]، وقال أيضًا: «المواعظ صقال النفوس وجلاء القلوب»[٣]، وجاء في وصيته عليه السلام لولده الحسن عليه السلام: «أحيِ قلبك بالموعظة»[٤].

٣ - الطباع البشرية والصفات التي يتصف بها كل فرد منا وطبيعة الأخلاق والتصرفات ليست أمورًا محتومة لا قِبَل للإنسان بها ولا يستطيع تغييرها، بل بوسع كل منا أن يجاهد نفسه ويروّضها ويوجه قيادها في الاتجاه الذي يريده، وهذا ما يعطي للموعظة أهمية خاصة وموقعًا

(١) سورة الغاشية، الآيتان: ٢١، ٢٢.
(٢) ميزان الحكمة ١٠ : ٥٣٩.
(٣) نفسه.
(٤) نهج البلاغة، الكتاب ٣١، ص ٣٩٢.

عظيمًا؛ ذلك أنها تستطيع أن تضطلع بمهمة مؤثرة في جعل شخص ما ينتبه لنفسه قبل فوات الأوان، فيقودها بعدئذ في طريق النجاة، فعن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: «ثمرة الوعظ الانتباه»[١].

٤ - لا بد لأفراد أي مجتمع من المجتمعات من أن يعوا جيدًا أنهم مشتركون في مسؤوليتهم عن مجتمعهم، وأنّ الضرر الذي قد يلحقه بعضهم به سيعود عليهم جميعًا بالوبال والخسران، فلا معنى إذن لعدم المبالاة، ولا موقع على هذا للتغافل والإعراض عما يمكنه أن يسيء إلى المجتمع كله، بل لا بد من التوجه إلى المسيئين بالوعظ والتوجيه والنصح. من هنا وجدنا الإمام عليًا عليه السلام يقول: «لا خير في قوم ليسوا بناصحين ولا يحبون الناصحين»[٢]، ووجدناه في حياته الشريفة يطلب النصيحة من أصحابه الصالحين، فيعلّمهم بذلك ما ينبغي لهم أن يتخذوه مسلكًا دائمًا في حياتهم الاجتماعية وكل شؤونها ومتغيراتها، قائلًا: «أنتم

(١) ميزان الحكمة ١٠: ٥٣٩.
(٢) نفسه ١٠: ٦١.

الأنصار على الحق، والإخوان في الدين، والجُنَن يوم البأس، والبطانة دون الناس، بكم أضرب المدبر، وأرجو طاعة المقبل، فأعينوني بمناصحة خلية من الغش، سليمة من الريب، فوالله إني لأولى الناس بالناس»(١).

٥ - علاقة المؤمن بأخيه المؤمن ليست علاقة سطحية قائمة على المجاملات والمظاهر الاجتماعية الخارجية وحدها، إنها علاقة قلبية وجدانية عميقة تجعل كل واحد منهما يستشعر آلام الآخر ويتحسس كل ما يحس به، كما عن الصادق عليه السلام: «المؤمن أخو المؤمن كالجسد الواحد، إن اشتكى شيئًا منه وجد ألم ذلك في سائر جسده، وأرواحهما من روح واحدة...»(٢). وما دامت علاقتهما بهذا النحو من العمق والتجذر في النفس فمن المحال أن يقف أحدهما موقف عدم المبالاة وعدم الاهتمام حين يرى الآخر محتاجًا إلى نصحه وتوجيهه، بل سيجد نفسه منساقًا، بمحبة ورغبة، إلى أن يوجه له

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١١٨، ص ١٧٤.
(٢) أصول الكافي ٢: ١٠٤.

ما أمكنه من وعظ ونصح، ولن تكون راحته النفسية إلا بهذا العمل يؤديه؛ كي لا يشعر أنه خان أخاه خيانة ما حين توانى عن نصحه وهو يستطيع أن يفيده به، فعن الصادق عليه السلام أيضًا أنه قال: «المؤمن أخو المؤمن، عينه ودليله، لا يخونه ولا يظلمه ولا يغشه ولا يعِده عدةً فيخلفه»(١).

ويذهب بعض النصوص إلى أبعد من هذا، حين يجعل النصيحة حقًا لأخي المؤمن عليّ، وليست مجرد عمل خيّر أقوم به متطوعًا، فعن الإمام الصادق عليه السلام كذلك أنه قال: «المؤمن أخو المؤمن يحقّ عليه النصيحة»(٢).

٦ - إيمان المؤمن حالة تجعله لا يتقبل وجود أي مظهر سلوكي يتنافى مع الإيمان ويتعارض معه، فيجعله هذا الإيمان يسعى قدر وسعه إلى جعل الحياة كلها ملأى بما يقرّب إلى الله تعالى ويستجلب رضاه، وخالية من كل ما هو بعكس ذلك. وهذا يستدعي أن يكون الإيمان بما هو إيمان محركًا نحو إسداء النصح للآخرين وبذل الموعظة

---

(١) أصول الكافي ٢: ١٠٤.
(٢) ميزان الحكمة ١٠: ٥٦.

لهم فيما إذا كان لديهم ما يتعارض معه، ولعل هذا ما قصدته الروايات حين جعلت من النصح «غريزة» للمؤمن، فعن الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «المؤمن غريزته النصح»[١].

نعم، فمثلما يدعو الإيمانُ المؤمنَ إلى أن ينصح نفسه ويبعدها عن طريق الشيطان، فكذلك يدعوه إلى أن ينصح غيره؛ لذا قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لينصح الرجل منكم أخاه كنصيحته لنفسه»[٢]، وقال الإمام علي عليه السلام: «نعم الهدية الموعظة»[٣].

٧ - كفى للوعظ منطلقًا أنه موجب للتقرب إلى الله تعالى، بل من شأنه أن يجعل صاحبه الحريص عليه أعظم الناس درجة ومقامًا عند ربهم، فعن سيد الخلق محمد صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «إنّ أعظم الناس منزلة عند الله يوم القيامة أمشاهم في أرضه بالنصيحة لخلقه»[٤]. وهو أفضل الأعمال المقرّبة إليه سبحانه وتعالى، فعن الصادق عليه السلام قوله:

---

(١) ميزان الحكمة ١٠: ٥٦.
(٢) نفسه.
(٣) نفسه ١٠: ٥٤٠.
(٤) نفسه ١٠: ٥٥.

«عليك بالنصح لله في خلقه، فلن تلقاه بعمل أفضل منه»(١). بل، إنّ الإمام عليًا عليه السلام قد عدّه من الحقوق الإلهية الواجبة على العباد، إذ قال: «من واجب حقوق الله على عباده النصيحة بمبلغ جهدهم، والتعاون على إقامة الحق بينهم»(٢).

وبعد، فلمّا كان الإسلام يهتم بالوعظ كل هذا الاهتمام، من كل المنطلقات المتقدمة وغيرها، كان من البدهي المنتظر منه أن تكون فيه نصوص تشتمل على بيان مواصفات هذا الوعظ المطلوب وخصائصه. ومن هذه النصوص حديث الإمام الحسن العسكري عليه السلام الذي هو محل كلامنا هنا، ففيه يبيّن عليه السلام أنّ الوعظ الصحيح المراد هو الذي يكون سرًا بين الواعظ والمتّعظ، فهذا يكون زينًا للأخير، في حين أنّ الوعظ سيكون شينًا عليه وإساءة إليه إن حصل بنحو علنيّ أمام الآخرين. ويستدعي حديث الإمام سؤالًا مهمًا عن إيجابيات الوعظ السري ومزاياه التي تجعل منه زينة وتجعل من غيابه شينًا.

---

(١) ميزان الحكمة ١٠: ٥٥.
(٢) نهج البلاغة، الخطبة ٢١٦، ص ٣٣٤.

ويمكن الجواب بإبراز الإيجابيات الآتية:

الإيجابية الأولى: أبرزت روايات المعصومين عليهم السلام للوعظ - بنحو مطلق - إيجابية كبرى تتمثل في كونه دليلًا على حسن النية عند الواعظ أو الناصح، فلولا رغبته الصادقة في صلاح حال المنصوح، ونيته الحسنة في تحسين وضعه، لما أجهد نفسه وضيّع وقته في وعظه ونصحه. وفي هذا يقول الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام فيما روي عنه: «مناصحك مشفق عليك، محسن إليك، ناظر في عواقبك، مستدرك فوارطك، ففي طاعته رشادك، وفي مخالفته فسادك»(١)، وروي عنه عليه السلام أيضًا أنه قال: «من نصحك فقد أنجدك»(٢).

ولئن كانت هذه الإيجابية حاضرة في الوعظ مطلقًا، سواء أكان سريًا أم علنيًا، فإنّ حضورها في السري منه آكد وأوضح؛ فواعظك سرًا ليس يهدف إلا إلى خيرك ونفعك، وآيةُ حسن نيته أنه اختار أن يجعل وعظه بينك وبينه، في حين أنّ الواعظ علنًا قد تشوب نيتَه بعض الشوائب غير المرغوبة، كأن يكون قاصدًا في الواقع إهانتك وجرح مشاعرك

(١) ميزان الحكمة ١٠: ٥٧.
(٢) نفسه ١٠: ٦٠.

وأحاسيسك، أو يكون دافعه الحقيقي هو حبه الظهور والشهرة بين الناس. ومع أنّ هذه الشوائب ليست متيقنة الوجود قطعًا، فإنّ احتمال وجودها في النصح العلني أكبر وأظهر، فهذا النصح يبدو أقرب إلى ذلك الذي عناه الإمام علي عليه السلام بقوله: «ربما نَصَح غيرُ الناصح وغَشّ المستنصح»(١).

الإيجابية الثانية: إذا كان في وسع العاقل أن يأخذ لنفسه موعظة من كل شيء، مثلما قال الإمام علي عليه السلام: «إنّ في كل شيء موعظة وعبرة لذوي اللب والاعتبار»(٢)، فإنّ هذا لا يعني كون المواعظ كلها متساوية في درجة تأثيرها، فهي في هذا الجانب متفاوتة، ولا شك أنّ ثمة مواعظ هي أبلغ أثرًا وأعمق من غيرها، وقد تحدثت الروايات عن هذا، كما في كلمة الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام: «أبلغ العظات النظر إلى مصارع الأموات والاعتبار بمصائر الآباء والأمهات»(٣).

إنّ الوعظين السري والعلني يتفاوتان فيما بينهما تفاوتًا جليًا من ناحية درجة التأثير، فبينما يكون الوعظ السري ذا

(١) ميزان الحكمة ١٠: ٥٨.
(٢) ميزان الحكمة ١٠: ٥٤٢.
(٣) نفسه.

تأثير عميق وواضح في العادة؛ لأنه يحلّ في وجدان متلقّيه محلّ قبول، يؤدي الوعظ العلني إلى نفور المتلقي وتأذيه، وبالنتيجة عدم قبوله وتأثره، حفاظًا منه على صورته الاجتماعية وموقعه في نفوس المستمعين، وربما يدعوه هذا إلى اللجوء إلى بعض ما يعرف في علم النفس بـ «آليات الدفاع»، من قبيل الإنكار، والتسويغ، والإسقاط. . .

الإيجابية الثالثة: الوعظ السري يتضمن - كما هو واضح من اسمه - ستر عيوب المؤمنين وعدم هتك أسرارهم على الملأ، لكن الوعظ العلني يكون في العادة بخلاف ذلك، مؤديًا إلى فضح المؤمن أمام الآخرين وكشف الستر عن بعض عيوبه التي يتأذى بانكشافها أمام الآخرين، وهذا من المحرمات القطعية الثابتة، فعن عبد الله بن سنان أنه قال: «قلت له: عورة المؤمن على المؤمن حرام؟ قال: نعم، قلت: تعني سُفليه؟ قال: ليس حيث تذهب، إنما هي إذاعة سره»[(١)].

إنّ هتك ستر المؤمن مصداق جليّ لإذلاله وإهانته وتحقيره، حتى إن لم يكن ذلك مقصودًا، وروي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: قال الله عز

(١) أصول الكافي ٢: ٢٠٤.

وجل: قد نابذني من أذلّ عبدي المؤمن»[١]. وعن الصادق عليه السلام أيضًا أنه قال: «إنّ الله تبارك وتعالى يقول: من أهان لي وليًا فقد أرصد لمحاربتي، وأنا أسرع شيء إلى نصرة أوليائي»[٢].

الإيجابية الرابعة: إضافة إلى ما تقدم في الإيجابية السابقة من حفظ كرامة المؤمن وعدم الإساءة إليه بفضح أسراره، يتضمن الوعظ السري إيجابية عدم الإساءة إلى المجتمع كله بنشر أخبار المعاصي والرذائل والمنكرات؛ ذلك أنّ نشر مثل هذه الأخبار قد يكون له أثر سيء جدًا في تشجيع بعض أصحاب الإرادات الميتة والنفوس المريضة على التجرؤ على ارتكاب بعض المنكرات التي سبقهم الآخرون إلى اجتراحها. من هنا وجدنا ذلك التحذير الشديد في روايات النبي وآله الطاهرين عن إذاعة أخبار الفواحش والرذائل، حتى إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ورد عنه: «من أذاع فاحشة كان كمبتدئها، ومن عيّر مؤمنًا بشيء لم يمت حتى يركبه»[٣].

الإيجابية الأخيرة: ثمة بين الموعظة والمودة علاقة وثيقة متبادلة، فكلٌ منهما سبب ونتيجة للأخرى: فمن جانب نجد

(١) أصول الكافي ٢: ٢٠١.
(٢) نفسه.
(٣) نفسه ٢: ٢٠٣.

أنّ المودة الصادقة الحقيقية تقود إلى الموعظة بلا ريب، فعن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: «النصح ثمرة المحبة»[١]، ومن الجانب الآخر نجد أنّ الموعظة تزرع المودة بين الناس وتعززها، ورد عن الإمام علي عليه السلام أيضًا أنه قال: «النصيحة تثمر الود»[٢]. والنتيجة هي أنّ هناك ارتباطًا وثيقًا، لا يمكن التغافل عنه بحال، بين الطرفين؛ لذا يكون غياب أحدهما دليلًا على غياب الآخر، فعن علي عليه السلام أيضًا أنه قال: «ما أخلص المودة من لم ينصح»[٣].

وإذا شئنا الموازنة بين الوعظين السري والعلني من جهة علاقتهما مع المودة، لم نتردد في الحكم بكون علاقة الوعظ السري أوثق وأقوى؛ ذلك أنه كاشف بوضوح عن علاقة مودة إنسانية قلبية تربط بين إنسانين بكل صدق وعمق، بنحوٍ لا يرتضيان معه أن يعرضا أمورهما على الناس الآخرين، ويحبان دومًا أن تظل أحاديثهما محصورة بينهما فقط، فهي أحاديث القلوب التي لا تورق ولا تثمر إلا بعيدة عن المتطفلين والغرباء، مهما كانت نياتهم.

---

(١) ميزان الحكمة ١٠: ٥٦.
(٢) نفسه.
(٣) نفسه ١٠: ٥٥.

قبسة مهديّة أو مهدويّة: الدعاء بتعجيل الفرج

الإمام المهدي المنتظر (عجل الله فرجه): «وأكثروا الدعاء بتعجيل الفرج، فإنّ ذلك فرجكم»[1].

يطلب الإمام عليه السلام، في هذا الخطاب الذي وجّهه إلى المؤمنين به، الإكثار من الدعاء بتعجيل الفرج، والمقصود هو الفرج المتمثل في الإذن الإلهي له بالظهور بعد غيبته الطويلة الممتدة قرونًا من الزمن، وهذا مما بشّر النبي صلى الله عليه وآله وسلم بحتمية تحققه في أحاديث شريفة متعددة، منها الحديث المعروف: «لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد لطوّل الله ذلك اليوم حتى يخرج رجل من ولدي فيملأ الأرض عدلًا وقسطًا كما مُلئت ظلمًا وجورًا»[2].

(١) الاحتجاج، أبو منصور الطبرسي، بتعليق السيد محمد باقر الموسوي الخرسان، ط٢، مؤسسة الأعلمي، بيروت ١٩٨٣، ٢: ٤٧١.

(٢) كتاب الغيبة، الشيخ الطوسي، مؤسسة المعارف الإسلامية، قم ١٤٢٥هـ،=

لقد شاء الله تعالى أن يكون تحقيق هذه الغاية - أعني ملء الأرض عدلًا وقسطًا - بطريقة طبيعية قائمة على توافر الأسباب المألوفة من أجل حصول المسببات المرجوة منها، وليس بطريقة إعجازية خارقة للمألوف، وتطلّب هذا أن تعطى البشرية فرصتها الكافية لتجرب ما شاءت من الأنظمة والقوانين والمناهج ليثبت لها، في نهاية الأمر، أنّ نجاتها وسعادتها الحقيقية إنما تكون بتطبيق حكم الله ونبذ كل ما سواه. وفي أثناء هذه الفرصة والمهلة الطويلة، كان لا بد من حفظ الإمام المهدي عليه السلام عن الأعداء وصيانته عن القتل؛ كي يتمكن من الاضطلاع بمسؤوليته العظمى عندما يحين وقتها؛ لذا روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: لا بد للغلام من غيبة، فقيل له: ولم يا رسول الله؟ قال: يخاف القتل»[(١)]. وواضحٌ أنّ خوف القتل إنما هو كناية عن حرص

= ص٤٢٥، الحديث ٤١٠. وهذا الحديث رواه الخاصة والعامة بتفاوت في اللفظ والمعنى واحد، يراجع مثلًا: روضة الواعظين ص٢٦١؛ والإرشاد ٢: ٢٤٠، والبحار ٥١: ١٣٣؛ وكمال الدين ص ٣١٧؛ وكنز الفوائد ١: ٢٤٦؛ ومسند أحمد ١: ٩٩؛ وسنن ابن ماجة ٢: ٩٢٩؛ وسنن أبي داود ٢: ٣٠٩؛ وسنن الترمذي ٣: ٣٤٣.

(١) بحار الأنوار ٥٢: ٩٠.

الإمام ﷺ على أداء تكليفه الإلهي بإيصال البشرية إلى سعادتها المنتظرة، وليس المراد الخوف من القتل في سبيل الله تعالى، فهو من تلك الشجرة النبوية والأسرة الطاهرة التي القتل لها عادة وكرامتها من الله الشهادة.

وفي مدة غيبة الإمام ﷺ، دلّت الروايات الشريفة على أنّ المؤمنين به مطالبون بأن ينتظروا الفرج، وذكرت لهذا الانتظار فضيلة عظيمة وجعلت له أجرًا جزيلًا، حتى روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أفضل أعمال أمتي انتظار الفرج من الله عز وجل»(١)، وعن الإمام علي أمير المؤمنين ﷺ أنه قال: «أفضل عبادة المؤمن انتظار فرج الله»(٢).

إنّ عدّ الأحاديث الشريفة انتظارَ الفرج عملًا عباديًا، بل أفضل الأعمال العبادية، يشير إلى أنّ الانتظار المراد هنا ليس يعني البقاء السلبي دون فعل شيء، والتخلي عن كل مسؤولياتنا في حق الإمام ﷺ بحجة أننا منتظرون، وليس علينا أن نفعل أي شيء في مدة هذا الانتظار!

أحدنا حين ينتظر زيارة ضيف محترم له في بيته، يسعى

(١) بحار الأنوار ٥٢: ١٢٨.
(٢) نفسه ٥٢: ١٣١.

إلى جعل كل شيء مهيّأً ومنظمًا ولائقًا باستقبال الضيف العزيز؛ كي لا يخرج الضيف من بيته بانطباع سيء وعدم ارتياح. نعم، هكذا يكون انتظارنا مقرونًا بالمسؤولية والاستعداد والعمل حين تتعلق القضية بضيف هو بالنتيجة - مهما كان في حد نفسه شخصية مهمة ومحترمة - أقلّ من مقام الإمام المهدي عليه السلام بمراتب كثيرة غير قابلة للمقارنة، فكيف إذًا ينبغي أن يكون انتظارنا للإمام عليه السلام؟

إنّ لهذا الانتظار أبعادًا متعددة، أهمها:

١ - البُعد الإلهي:

على منتظري الإمام عليه السلام أن يعوا جيدًا أنّ انتظارهم هذا له بُعد إلهي واضح؛ فهم في انتظار تحقق الوعد الرباني الذي تحدث عنه القرآن الكريم في آيات، منها:

- ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾(١).

وقد جاء في الرواية عن أبي بصير أنه قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الآية فقال: «والله ما أنزل تأويلها بعد،

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٣٣.

قلت: جعلت فداك ومتى ينزل؟ قال: حتى يقوم القائم إن شاء الله، فإذا خرج القائم لم يبق كافر ولا مشرك إلى كره خروجه حتى لو كان كافر أو مشرك في بطن صخرة لقالت الصخرة: يا مؤمن في بطني كافر أو مشرك فاقتله، قال: فينحّيه الله فيقتله»(١).

- ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًاۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾(٢).

عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنه قال: «الآيات هم الأئمة، والآية المنتظر هو القائم عليه السلام، فيومئذ لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل قيامه بالسيف، وإن آمنت بمن تقدمه من آبائه عليهم السلام»(٣).

- ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾(٤).

---

(١) بحار الأنوار ٥١: ٦٠.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٥٨.
(٣) بحار الأنوار ٥١: ٥١.
(٤) سورة الحج، الآية: ٤١.

ورد عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام أنه قال في تفسيرها: «فهذه لآل محمد صلى الله عليهم إلى آخر الأئمة، والمهدي وأصحابه يملّكهم الله مشارق الأرض ومغاربها، ويظهر به الدين ويميت الله به وبأصحابه البدع والباطل، كما أمات السفهاء الحق، حتى لا يرى أين الظلم، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر»(١).

إنّ كون قيام الإمام المهدي عليه السلام في آخر الزمان وعدًا إلهيًا، ليملأ نفوس المؤمنين تفاؤلًا بالمستقبل وانتظارًا للفرج الإلهي المبين، على الرغم من كل المآسي والتحديات وصنوف الظلم والغطرسة التي يواجهونها من المستكبرين والظالمين في هذا العالم. وإنّ نظرة كهذه لكفيلة بجعل المؤمنين أقوياء في دواخل نفوسهم، ثابتين راسخين على مبادئهم، لا يجد الضعف أو التخاذل عن الحق طريقًا إليهم.

ولمّا كانت القضية ذات بُعد إلهي، كان الفرج فيها أيضًا راجعًا إلى الله وحده، فهو الذي يقرّره في الوقت الملائم. روى الشيخ الصدوق عن عبد الحميد الواسطي أنه قال للإمام

(١) بحار الأنوار ٥١: ٤٨. جدير بالذكر أنّ المجلسي (قدس سره) ذكر في هذا الباب المعنون «باب الآيات المؤولة بقيام القائم عليه السلام» ستة وستين موضعًا من القرآن الكريم ورد في الروايات الشريفة أنها متعلقة بالإمام المهدي عليه السلام.

محمد الباقر عليه السلام: «أصلحك الله، لقد تركنا أسواقنا انتظارًا لهذا الأمر، فقال عليه السلام: يا عبد الحميد، أترى من حبس نفسه على الله عز وجل لا يجعل الله له مخرجًا؟ بلى والله ليجعلن الله له مخرجًا، رحم الله عبدًا حبس نفسه علينا، رحم الله عبدًا أحيا أمرنا. قال: قلت: فإن متّ قبل أن أدرك القائم؟ قال: القائم منكم أن لو أدركت قائم آل محمد نصرته، كان كالمقارع بين يديه بسيفه، لا بل كالشهيد معه»(١).

وفي توقيع مروي عن الإمام المهدي المنتظر عليه السلام ورد: «وأما ظهور الفرج فإنه إلى الله تعالى ذكره، وكذب الوقّاتون»(٢). ومن هذا المنطلق جاءت الوصية، في المقطع الذي هو محل بحثنا، بالإكثار من الدعاء بتعجيل الفرج.

٢ - البُعد الفردي:

إنّ لانتظار الفرج في بُعده الفردي جوانب متنوعة:

أ - **الجانب الفكري**: ويتمثل هذا الجانب في ضرورة معرفة الإمام عليه السلام، فإنّ من لا يعرفه معرفة صحيحة

---

(١) كمال الدين وتمام النعمة، الشيخ أبو جعفر الصدوق، منشورات الفجر، بيروت ٢٠٠٩، ص ٤٤٩.
(٢) نفسه، ص ٣٣٥.

ولا يعتقد به اعتقادًا إيمانيًا راسخًا لا يمكنه أن يكون منتظرًا له انتظارًا حقيقيًا، وفي المقابل فإنّ من عرفه فقد حقّق المطلوب؛ لذا ليس يضره أن يتقدم الفرج زمانًا أو يتأخر، فعن زرارة أنّ الإمام الصادق عليه السلام قال: «اعرف إمامك، فإنك إذا عرفت لم يضرّك تقدمَ هذا الأمر أو تأخر»[1].

بل تفيد الروايات الشريفة أنّ المعرفة الصحيحة هي الفرج بالنسبة للعارف، فقد روي أنّ أبا بصير سأل الإمام الصادق عليه السلام: جعلت فداك، متى الفرج؟ فقال: يا أبا بصير، وأنت ممن يريد الدنيا؟ من عرف هذا الأمر فقد فُرّج عنه لانتظاره»[2].

وفي بعض الروايات ما يفيد أنّ من وصل إلى درجة المعرفة الصحيحة بالإمام عليه السلام ثم مات قبل ظهوره فكأنه نال ثواب نصرته ووصل إلى درجة أنصاره، فعن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «... ومن مات وهو عارف لإمامه، كان كمن هو مع القائم في فسطاطه»[3].

(١) أصول الكافي ١: ٢٣١.
(٢) نفسه.
(٣) أصول الكافي ١: ٢٣١.

ب - **الجانب القلبي**: ويتجلى في محبة الإمام عليه السلام ومودته، فهو واحد من ذوي قربى النبي صلى الله عليه وآله وسلم الذين أمر القرآن الكريم بمودتهم: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾[(١)]، ودعا النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم أيضًا إلى محبتهم، فعن أبي سعيد الخدري أنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «الخلفاء بعدي اثنا عشر، تسعة من صلب الحسين، والتاسع قائمهم ومهديهم، فطوبى لمحبيهم، والويل لمبغضيهم»[(٢)].

إنّ هذا الارتباط القلبي يستدعي أن تهفو قلوب المؤمنين إلى لقاء الإمام الغائب (عجّل الله فرجه)، وتحزن أشد الحزن لفراقه، وتكتوي نفوسهم بنار الشوق إلى أداء واجب نصرته والجهاد بين يديه الشريفتين، وتظل هذه حالتهم حتى حينما يكون الآخرون في فرح وسرور، بل إنّ المؤمنين يزدادون حزنًا في مثل هذه الأوقات؛ لذا نجد أنّ دعاء الندبة هو دعاء مشتمل على كثير من الحزن والأسى، مع أنه دعاء للأعياد الأربعة (الفطر والأضحى والغدير والجمعة)، ففيه نقرأ مثلًا:

---

(١) سورة الشورى، الآية: ٢٣.

(٢) الحكم الزاهرة، ص ١٠٢.

«إلى متى أحار فيك يا مولاي؟ وإلى متى؟ وأي خطاب أصف فيك؟ وأي نجوى؟ عزيز عليّ أن أجاب دونك وأناغى، عزيز عليّ أن أبكيك ويخذلك الورى، عزيز عليّ أن يجري عليك دونهم ما جرى، هل من معين فأطيل معه العويل والبكاء؟ هل من جزوع فأساعد جزعه إذا خلا؟ هل قذيت عين فساعدتها عيني على القذى؟ هل إليك يا بن أحمد سبيل فتُلقى؟»(١).

إنّ كل هذا الحزن والبكاء في أيام الأعياد مرجعه إلى الحب الحقيقي الصادق الذي تحمله قلوب المؤمنين لإمامهم عليه السلام، فهذا الحب يجعل قلب المحب يعتصر ألمًا وحزنًا على فراق محبوبه في الوقت الذي يرى فيه الناس الآخرين من حوله سعداء. «لاحظوا حال العاشق المشتعل فؤاده عشقًا، فستجدون قطعًا أنّ حزنه يزداد كلما ازداد عموم الناس سرورًا؛ نظرًا لكون الشيء الوحيد الذي يسعده هو وصال معشوقه، وهذا غير موجود عنده»(٢).

---

(١) من دعاء الندبة، مفاتيح الجنان، ص ٥٣٦-٥٣٧.
(٢) مصلح غيبي (باللغة الفارسية)، السيد حسن أبطحي، انتشارات آل ياسين، مشهد وطهران ١٤٠٥ه، ص ١٦٩.

ويستلزم الارتباط القلبي الوثيق أيضًا أن تكون قضية الإمام المنتظر عليه السلام هي قضية المؤمنين المرتبطين به، فهم أشد شيء ارتباطًا بها واستحضارًا لها، لا تغيب عنهم في حال من الأحوال، وكيف لها أن تغيب وهي قضيتهم الأساسية الكبرى؟ لذا ورد في نهاية المقطع المتناول: «فإنّ ذلك فرجكم».

ج - **الجانب اللساني**: لسان المؤمن ينبغي أن يكون ترجمان قلبه، دونما انفصام بينهما أو تنافٍ. ولمّا كان قلبه مترعًا بحب إمامه عليه السلام وعشقه، كان مقتضى ذلك أن يكون لسانه لهجًا بذكر الإمام عليه السلام، ويتطلب هذا الذكر أن يدعو لإمامه بتعجيل الفرج، بل أن يكثر من الدعاء له بذلك: «وأكثروا الدعاء بتعجيل الفرج».

د - **جانب سائر الجوارح**: فالمؤمن المنتظر للفرج بحقّ، لا يسمح لسائر جوارحه بالإتيان بالمحرمات والمعاصي، فهذه تتنافى مع كونه منتظرًا ظهور إمامه عليه السلام، بل إنها السبب في تأخر ظهوره والفرج، كما ورد في كتاب للإمام المهدي المنتظر عليه السلام إلى

الشيخ المفيد (قدس سره): «فما يحبسنا عنهم إلا ما يتصل بنا مما نكرهه ولا نؤثره منهم»[1].

٣ - البُعد الإسلامي:

قضية الإمام المهدي عليه السلام هي قضية نصرة الإسلام وظهوره على الدين كله ولو كره المشركون، وهي قضية تحقيق الوعد الإلهي بنصر المؤمنين وأن تكون وراثة الأرض لعباده الصالحين، فالارتباط بهذه القضية ارتباط بالإسلام نفسه، والتنكّر لها تنكّر له. من هنا وجدنا الأحاديث الشريفة تربط بين إنكار المهدي عليه السلام والجاهلية، فعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «من أنكر القائم من ولدي في زمان غيبته مات ميتة جاهلية»[2]. بل ثمة في الأحاديث النبوية ملازمة بين إنكار الإمام المهدي عليه السلام وإنكار النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «من أنكر القائم من ولدي فقد أنكرني»[3].

ولمّا كانت القضية هكذا، وكان المسلمون يجمعون على

(١) الاحتجاج ٢: ٤٩٩.
(٢) بحار الأنوار ٥١: ٧٣.
(٣) نفسه.

الإيمان بها أو يكادون[1]، فإنّها جديرة بأن تكون قضية محورية يلتف حولها المسلمون جميعًا، على اختلاف مشاربهم وتنوّع مدارسهم الفكرية، فتكون سببًا قويًا من أسباب جمع شملهم وتوحيد كلمتهم، في طريق سعيهم جميعًا نحو عزة دينهم ورفع رايته خفاقةً على وجه البسيطة كلها.

٤ - البُعد العالمي:

قضية الإمام المهدي عليه السلام لا تعني المسلمين وحدهم، بل تعني البشر أجمعين؛ وذلك لكونها تحمل للناس جميعًا بشارة القضاء على ظلم الظالمين وجور الجائرين، وتزفّ لهم فرحة قرب امتلاء الأرض قسطًا وعدلًا، فعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «المهدي من ولدي تكون له غيبة، إذا ظهر يملأ الأرض قسطًا وعدلًا كما ملئت جورًا وظلمًا»[2]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم أيضًا: «إنّ المهدي من عترتي، من أهل بيتي، يخرج في آخر الزمان، تنزل له السماء قطرها، وتخرج له الأرض بذرها،

(١) جمع الشيخ الفقيه الإيماني في كتابه «الإمام المهدي عند أهل السنة» ما يزيد على خمسين مصدرًا لعلماء من غير الشيعة الإمامية يثبتون قضية المهدي عليه السلام، ويذهب كثير منهم إلى كونها متواترة.

(٢) الحكم الزاهرة، ص ١٠٧.

فيملأ الأرض عدلًا وقسطًا كما ملأها القوم ظلمًا وجورًا»[١].

وبما أنّ الوصول إلى درجة امتلاء الأرض كلها قسطًا وعدلًا والقضاء على الظلم والجور غاية إنسانية عظيمة تنجذب إليها البشرية كلها بفطرتها، فإنّ من الأبعاد المهمة لانتظار فرج الإمام المهدي عليه السلام هو هذا البُعد العالمي المتمثل في كيفية دعوة الناس جميعًا إلى قضيته وربطهم بها، من خلال إبراز هذا الجانب الجذاب لكل النفوس البشرية الطالبة للعدالة والقسط والنافرة من الظلم والجور.

لقد بيَّن سماحة السيد الأبطحي أنّ المستفاد من الروايات أنّ ظهور الإمام الحجة المنتظر عليه السلام مشروط بشرطين:

أولهما: أن يصل الناس في هذه الدنيا إلى مرحلة من النضج الفكري لا يريدون معها غير حكومة العدل العالمي للإمام المهدي عليه السلام.

والآخر: أن يحسّوا برفض شديد لا يُحتمل للظلم[٢].

وإذا كان الشرط الآخر مرتبطًا بجانب وجداني عاطفي

(١) بحار الأنوار ٥١: ٧٤.

(٢) مصلح غيبي (كتاب باللغة الفارسية)، ص ١٢٦.

سيظل يتشكل وينمو تلقائيًا كلما ازداد الظلم وانتشر في هذا العالم، فإنّ الشرط الأول لا يكتفى في تحقيقه بالجانب التلقائي وحده، بل لا بد لكل المؤمنين بقضية المهدي عليه السلام والمنتظرين له من التخطيط الواعي للأساليب الفكرية والإعلامية التي يستطيعون بها نشر الوعي بين الناس بأهمية ما سيقدمه الإمام من عطاء للبشرية، وأنْ لا شيء من أفكارهم وطروحاتهم يمكنه أن يقوم مقام ذلك العطاء الإلهي العظيم.

المحتويات

الموضوع **الصفحة**

قبسة نبوية: أعقل الناس وأجهلهم ٧
الوجه الأول ١٣
الوجه الثاني ١٧
الوجه الثالث ١٩
الوجه الأخير ٢١
قبسة علوية: زلة الوليّ ووثبة العدوّ ٢٣
البُعد الأول ٢٤
البُعد الثاني ٢٦
البُعد الثالث ٣٠
البُعد الرابع ٣٣
البُعد الأخير ٣٦

قبسة فاطمية: الصوم والإخلاص ٣٨
الإجابة الأولى ٤٠
الإجابة الثانية ٤٢
الإجابة الثالثة ٤٤
الإجابة الرابعة ٤٦
الإجابة الأخيرة ٤٨
قبسة حَسَنية: أفضل الأبصار والأسماع والقلوب ٥٠
الدرس الأول ٥٤
الدرس الثاني ٥٦
الدرس الثالث ٥٨
الدرس الأخير ٦٠
قبسة حسينية: مع الحق ٦٤
المورد الأول: تمييز الحق من الباطل ٦٥
المورد الثاني: العمل بالحق ٦٧
المورد الثالث: سرّ حقّانيّة الحقّ ٦٩
المورد الرابع: الصبر والتحمل في سبيل الحق ٧١
المورد الأخير: الظلم مانع من الحياة الحقة ٧٣

المحور الأول: أهمية العمر ٧٦

قبسة سجادية: العمر وقيمته ٧٦

المحور الثاني: العمر وطاعة الله ٧٨

المحور الثالث: العمر المرتع للشيطان ٨١

المحور الأخير ٨٦

قبسة باقرية: غش النفس ٨٨

الحالة الأولى: بصر عيوب الآخرين دون الذات ٨٩

الحالة الثانية: تعييب غيره بما لا يستطيع تركه ٩٢

الحالة الأخيرة: إيذاء الجليس بما لا يعني ٩٤

قبسة صادقية: احتياجات أخوية ١٠٠

الشيء الأول: التناصف ١٠٣

الشيء الثاني: التراحم ١٠٥

الشيء الأخير: نفي الحسد ١٠٧

قبسة كاظمية: الذنوب والبلاء ١١٢

الجواب الأول ١١٤

الجواب الثاني ١١٦

الجواب الثالث ١١٨

الجواب الرابع ١٢٠
الجواب الأخير ١٢٢
قبسة رضوية: قليل الرزق وقليل العمل ١٢٥
المفهوم الأول: الرزق هو من الله تعالى ١٢٦
المفهوم الثاني: الرضا عن الله تعالى ١٢٨
المفهوم الثالث: الرضا بالرزق القليل ١٣٠
المفهوم الأخير: الرضا المتبادل ١٣٢
قبسة جوادية: الموت بالذنوب ١٣٦
الزاوية الأولى: قتل الإنسانية ١٤١
الزاوية الثانية: قتل هدف الخلقة ١٤٤
الزاوية الثالثة: قتل الزمن ١٤٨
الزاوية الأخيرة: قتل المجتمع ١٤٩
قبسة هاديّة أو هادويّة: خير من الخير ١٥١
الأفق الأول ١٥٢
الأفق الثاني ١٥٥
الأفق الثالث ١٥٧
الأفق الأخير ١٥٩

قبسة عسكرية: الوعظ سرًا وعلانيةً ١٦٢

قبسة مهديّة أو مهدويّة: الدعاء بتعجيل الفرج ١٧٧

١ - البُعد الإلهي ١٨٠

٢ - البُعد الفردي ١٨٣

٣ - البُعد الإسلامي ١٨٨

٤ - البُعد العالمي ١٨٩

المحتويات ١٩٣

ISLAMICMOBILITY.COM
IN THE AGE OF INFORMATION
IGNORANCE IS A CHOICE

"Wisdom is the lost property of the Believer,

let him claim it wherever he finds it"

Imam Ali (as)